مشاهير العرب

٢

عمرو بن العاص

فاتح مصر

عبد السلام العشرى

دار المعارف

مشاهير العرب

(٢)

عمرو بن العاص

فاتح مصر

بقلم

عبد السلام العشري

الطبعة السابعة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

ابن النابغة

لم تجتمع قريش هذه المرة فى دار الندوة[1] كما كانت تفعل ، إذا أرادت أن تُجمع على أمر من الأمور ، ولكنها اختارت بيت عظيم من عظمائها يسمى عبد الله بن جُدعان ، لأنها تداعت لتبحث أمر جماعة منها يعتزون بقوتهم وكثرتهم ، فيعتدون على الناس ، من مكة ومن غير مكة ، عالمين أن وراءهم سيوفًا مسنونة ، ورماحًا مشرعة ، تنصر أخاها ظالمًا أو مظلوماً .

وكان العرب يُعظمون قريشًا ، حارسة البيت العتيق ، الذى بناه إبراهيم وإسماعيل ، وحامية الأصنام المنصوبة حول الكعبة ، تستقبل الوافدين لزيارتها ، والتوسل إليها ، واستشارتها فى أخص أمورهم ، وأعقد مشكلاتهم ، حاملين لها من أطيب ما يملكون تقربًا وإرضاء . ولا ينقطع الناس صيفًا ولا شتاء عن مكة ، للحج أو للتجارة فى تلك المدينة الكبيرة المتوسطة بين الشام واليمن ، والمتحكمة فى تجارة المشرق والمغرب ، وفى وفودهم على مكة خيرٌ عميم ، يُصبر أهلها على احتمال حرها الشديد ، ومكانها النائى عن الزرع والماء ، إلا عينًا نابعة فى وسطها قريبًا من الكعبة تسمى زمزم ، تسقى مكة ، وينزل حولها المسافرون فيتزودون من مائها ، كما يتزودون من عون الآلهة القوية القادرة .

---

(١) دار بناها قصى بن كلاب جد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، حين جعلت له قريش أمرها ، وصارت مكاناً لاجتماعهم للخير والشر .

وضمت الدار كثيراً من بُطون قريش إلا بنى سهم . فلم توجه إليهم الدعوة ، لأن هذا الاجتماع قد أثاره عدوان كبير منهم ، وقريش لا يسرها أن يعتدى أحد على الوافدين إلى مكة ، أو القاصدين إلى البيت ، لأن حياتهم أكثر ما تقوم على التجارة ، التى يسيرون بها إلى الشمال حتى الشام ، وإلى الجنوب حتى اليمن . ويخترقون بها البحر حتى الحبشة ، ولا يودون أن يكون لأحد عندهم ثأر يطلبهم به ، إذا ما بعدوا عن ديارهم ، ولا يحبون أن يمتنع الناس عن البيت . ولا أن يفقدوا منزلتهم فى الأعين كجماعة متصلين بالآلهة التى لا تظلم مثقال ذرّة . ولا يودون أن ينتقص أحدٌ هذا الاعتقاد ، الذى رسخ فى قلوب العرب منذ بعيد ، وأفاد القرشيين حيثما حلوا وحيثما رحلوا . فاجتمعوا فى تلك الليلة لينصروا المظلوم ، ويردوا الحقوق إلى أهلها . ويؤكدوا للعرب ما يعتقدون ، من انطباعهم على صفات الآلهة التى يخدمونها ويسيرون بأمرها وهداها .

كانت شمس هذا اليوم تشرق ، وقريش تسرع إلى الحرم ، على أصوات استغاثة حزينة ، يرسلها رجل من قبيلة يمنية تسمى « زَبيد » كان قد أقبل إلى مكة لزيارة البيت ، وحمل معه بعض المتاجر التى تنفق فى سوقها . فتقدم إليه كبير من تجارها ، يسمى العاص بن وائل ، واشترى منه بضاعته ولم يعطه الثمن . وأخذ الزبيدى يطالبه حتى يئس منه ، فصعد مكاناً مرتفعاً قريباً من البيت ، وصاح ينادى من ينصفه ويرد إليه حقه فأسرعوا إليه . ولكنهم وجدوا أنفسهم هذه المرة أمام رجل عنيد . فبادروا

إلى التفكير فى عمل حاسم يقضون به على هذه المظالم .

واتفقوا فى هذا الاجتماع على تكوين حلف منهم يكون يداً واحدة على المعتدين من بنى سهم ، وغير بنى سهم ، وأقسموا على الوفاء بما تعاهدوا عليه ، ثم خرجوا من دار ابن جدعان إلى الكعبة ، ليشهدوا الآلهة على هذا الاتفاق الذى يرضيها ، وأخذوا يطوفون بالكعبة مسرورين بما عملوا من أمر عظيم .

وبينما كان القوم فى طوافهم جادين فى تأكيد عهدهم ، اعترضهم غلام تناهز سنه الرابعة عشرة ، أدعج العينين ، ربعة ، كبير الهامة ، ينطق وجهه بالإدراك والبصر ، ووقف ينظر إلى ابن جدعان فى ثبات وقوة ، فاستوقفت نظراته الرجل العظيم ، الذى يهابه الصغير ، ويوقره الكبير ، وجعل يسرح بصره فى الرجل ، كما ينظر الند الغاضب إلى الند ، ثم قال فى نبرات حادة حازمة :

ـ وأين كبير بنى سهم يا ابن جدعان ؟ !

فابتسم الرجل العظيم ، ومد بصره إلى الغلام ، ثم قال فى رفق :

ـ تركناه يمطل الناس حقوقهم يا عمرو ! أما سمعت الزبيدى وهو يستغيث من فوق جبل أبى قبيس [1] ؟ ! ولكنا لم نتعرض لأبيك بشر ، وإنما تحالفنا على الظالمين .

ـ ولكنكم أجبتم الزبيدى دون أن تسألوا العاص !

ـ ومن الذى يسأل أباك يا عمرو ؟ ! إنه يعتز بنفسه كأن الدنيا لم تخلق إلا له وحده ، لا يريد أن يسمع إلا رأيه هو ، ولا أن يتحدث أحد فى أمر أبرمه !

---

(١) جبل مشرف على مكة من الشرق .

— وكثيراً ما أصاب يا ابن جدعان !

— لا نمارى يا عمرو فى ذكاء أبيك ، وقوة بصره ، ولكن الظلم لا يفيدنا ولا يفيده ، إنه تاجر كبير ، والتجار أولى الناس بالأمانة ، والصدق ، واكتساب القلوب ، ثم نحن بعد ذلك تجار متنقلون فى كل البقاع ، أيرضيك أن تثأر قبيلة مثل زبيد لرجلها من تجار قريش ، إذا مرو ببلادهم ؟ أيرضيك أن يمتنع العرب عن الحج ، وزيارة البيت ؟ إن أباك ظالم يا عمرو ولا شك !

وتجمع الطائفون حول الغلام ، دهشين من صبر ابن جدعان على حديثه ، زائدى الدهشة من لباقة الغلام ودقة تعبيره ، واعتزازه بنفسه ، وألقى الغلام نظرة على الجمع الملتفين حوله ، ثم قال فى نبرات قوية :

— ما كان ينبغى أن تجندوا قريشاً هذا التجنيد ، قبل أن تتبينوا الحقيقة ، ولو فرضنا يا ابن جدعان أن العاص ظالم ، فقد كان الأجدر أن يؤخذ بالرفق . فإن الرفق كثيراً ما يحل المشاكل التى تعجز عنها الأسنة . وعلى كُلٍّ ، فقد خسرتم بنى سهم ، وهى شىء لا يستهان به .

وأخذت كلمات الغلام طريقها إلى قلوب القوم ، وأثارت غضبهم ، وود بعضهم لو رفع الغلام ، ثم دق رأسه الكبير بحجارة الكعبة فحطمه ، لكنه يعرف أن الحرم لا يُقترف فيه الإثم ، ويعلم كذلك أن الغلام ابن كبير بنى سهم ، وليس بنو سهم بالشىء اليسير .

وقرأ الغلام ما فى وجوه القوم من الغيظ الشديد ، وشمل القوم بنظرة

عاجلة ، ثم هز رأسه هزات خفيفة ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة ، ثم قال :

ــ حلف الفضول [١] ضد بنى سهم ! إنه يفيد الغرباء ، ويمزق الأقرباء ، وسترون عاقبة الفرقة ونهاية الخلاف .

ثم لوى وجهه ، وحاول ابن جدعان أن يمسك به ، فانفلت من يده لاوياً عنقه ، ثم سار مستقيم القامة ، فى خطواته زهو وخيلاء .

وعقدت الدهشة أرجل القوم فى أمكنتهم ، فجلسوا بجانب الكعبة ، وأرسلوا أفكارهم فى مطارح كثيرة ، وساد صمت طويل ، قطعه بعضهم قائلا : ليس هذا بغريب من ابن النابغة !

فترددت بين الجماعة أصوات مختلطة ممتلئة بالدهشة ، ثم ظهر منها صوت قوى يردد فى حسرة :

ــ كنت أود أن يكون لى ولد مثل هذا الغلام ، ولو كانت أمه مثل النابغة !

وانفتح باب الحديث ، وولج منه القوم إلى نجباء العرب ، فاختار كل منهم بعض مشاهير قومه ، وأخذ يتحدث عن ذكائهم من الصغر إلى الكبر ، وكان العرب يحفظون أنسابهم ، ويعرفون أجدادهم ، حتى ليستطيع الواحد منهم أن يعد آباءه إلى الثلاثين ، أو الأربعين ، ليكون ذلك عوناً

---

(١) كان نفر يقال لهم : الفضل بن الحارث الجرهمى ، والفضيل بن وداعة ، والمفضل ابن فضالة قد اجتمعوا فتحالفوا ألا يقروا بمكة ظالماً لما عظم الله من حقها ، ثم ذهب الزمن بذلك الحلف ولم يبق فى قريش إلا اسمه ، فحين اجتمعوا فى هذه المرة رأوا أن يعيدوا ذلك الحلف.

له ، يوم يجلس للفخر ، والتباهى بأنه فرع من جذوع طيبة ، ممتدة الجذور.

وطال الحديث عن عظماء الرجال وعن المنجبين والمنجبات ، والكثير منهم فى حيرة ، يتساءلون كيف تنجب سبيّة من السبايا مثل هذا الغلام ؟ ! وهل يُعقل أن عبدة يفوق ولدها أبناء الحرائر ؟ !

وكان بعضهم قد كبر عنده الظن ، بأن العاص هو الذى أرسل ابنه إليهم ، وأن الغلام قد عاد إليه ، ليطلعه على ما رأى وما سمع ، وقدّروا أن يكون بنو سهم قد اجتمعوا فى ناديهم ، يدبرون للرد على هذا الحلف ، فرأى بعض هؤلاء المتحالفين ، أن يذهب إلى منازل بنى سهم ، ليروا خبرهم وخبر ذلك الغلام .

بنو سهم

عاد عمرو إلى قومه ، فوجدهم مجتمعين فى دار أبيه الفسيحة ، ولم يجد فى وجوههم ما ينبئ عن غضبهم لذلك الحلف ، الذى يكاد ينطق بأنه موجه ضدهم ، وضد رئيسهم العاص بن وائل ، بل وجدهم فى مرح وبشر ، قد شربوا حتى ظهرت عليهم آثار الشراب ، وأرهفوا أسماعهم إلى مغنية ذات صوت رخيم ، ترجع الغناء ، فتحرك أوتار قلوبهم ، ويصيحون صيحات تملأ أرجاء المكان ، وتندفع خارجه ، وقد جلس العاص فى صدر الجماعة على بساط ثمين بديع النقش جميل التصوير ، وعليه حلة من الحرير الخالص ، صنعت له من قماش اليمن المزركش ، وقد عبق

المكان برائحة الطيب المتصاعدة من مجمرة أمام المغنية ، ترسل دخانها فى السماء ، متموجاً تارة ، ومعتدلا أخرى ، ومائلا مرة إلى أحد الجالسين الذين يحركون أكفهم فى وسطه ليجذبوه إليهم ، ثم يسحبونه بأنوفهم سحباً طويلا .

وما كاد عمرو يطل على الجمع ، حتى دعاه أبوه فى نبرات حازمة ، قد فارقته ابتسامته التى كان يشجع بها الفتاة على الغناء ، فأقبل الغلام ووقف أمامه فى أدب فابتدره قائلا :

« لماذا راجعت ابن جدعان عند البيت ؟ ! لقد فتحت لقريش باب القيل والقال ، ومهدت لهم ظنّاً كاذباً أن بنى سهم يقدرون لحلفهم وزناً أتظن أحداً منهم يقف لأحد منا إذا أراد أمراً ؟ أتظن آباءك قد غفلوا عما يكنه القوم لهم من حسد وبغضاء ؟ ! لقد أخطأت يا عمرو ! »

— ما ظننت أنى أخطأت يا أبى ! رأيت القوم يطوفون بالبيت ، فى غمرة من الفرح ، وكأنهم هزموا كسرى ملك الفرس ، أو قيصر ملك الروم ، فأحببت أن أبين لهم ما يجره هذا الحلف على قريش .

— أنسيت يا عمرو أن لبنى أبيك الحكومة ، لأن قريشاً وغير قريش ، قد عرفوا ما يمتازون به من قوة الحجة ، والمقدرة على التوسط بين الخصوم حتى يتراضوا ؟ ! أنسيت يا عمرو أن مجدنا يثير علينا عداوة أبناء عمومتنا ، لأن كلاً منهم يود أن يقصد العرب بابه ؟ ! ثم لنا دونهم قسم كبير من السلطان ، كفيل بأن يثير علينا القلوب ، أتدرى ما ذلك الأمر يا عمرو ؟

ـ أوقاف الآلهة يا أبى .

ـ نعم يا عمرو ، لقد جعلوها لنا باختيارهم ، لأن بنى سهم خير من يجيد أعمال المال وحفظه واستثماره . ألا يثير ذلك غضب طالبى العظمة ومحبى الزعامة ؟ ! ولكن سيوف بنى سهم لامعة ، ورماحهم مسنونة . فليتحالفوا ما شاءوا ، فلن يستطيعوا أن ينالوا من سهمى قلامة ظفر .

وكان القوم ينصتون إلى الحديث فى سرور بالغ ، لأن زعيمهم قد شفى ما فى نفوسهم . وأخذ بعضهم يمتدح موقف عمرو من ابن جدعان ، وأشار العاص للمغنية فاستأنفت الغناء ، كما أشار إلى عمرو بالجلوس ، لأنه سيفضى إليه بشىء يحبه ، وعاد القوم إلى مرحهم . وعادت الجارية ترجّع أعذب الغناء ، فاستخفهم الطرب ، وأخذوا ينشدون الأشعار الحماسية ، ويتوعدون من تحدثه نفسه بالاعتداء على عبد من عبيد بنى سهم ، فضلا عن الأحرار والرؤساء .

وبينما هم غارقون فى هذا الطرب ، ناسين ما حولهم من متاعب الحياة ، أقبل بعض الخدم مسرعين ، ينبئون العاص بأن قافلة اليمن قد وصلت ، وأن أفرادها جميعاً بخير ، قد أقبلوا بما لا يحصى من البضائع النادرة ، فانفرط عقد المجلس ، وأسرع السمّار لاستقبال القافلة ، وبقى العاص وابنه ، وأذنا الغلام مرهفتان لما سيتحدث به أبوه .

ولم يتحدث الرجل إلى ابنه بما وعده ، لأن الخدم قد عادوا يحملون البضائع الكثيرة ، وعلا الضجيج فى دار العاص ، يتنادى فيه الخدم بأمكنة البضاعة وترتيبها والحرص على الثمين منها ، وقام العاص وابنه

بنظران ما عادت به القافلة ، ثم رجع إلى مجلسه ، واستمع إلى أتباعه وهم يقفونه على كل صغيرة وكبيرة من أمر الرحلة ، يعاون بعضهم بعضاً ، ويتم بعضهم ما نسى الآخرون ، وهو منصت للحديث ، واع كل ما يقال ، ثم ابتسم سروراً ، وبشرهم بأن رحلة الشمال ستكون أوفر حظاً من رحلة الجنوب ، لأن ما حملوه من السلع النادرة ، له أسواق رائجة فى بلاد الشام التى سيرحلون إليها بعد ذلك .

وكان لتجارة العاص مكان ممتاز بين القوافل الكبيرة التى تخرج من مكة ، يصحبها هو أحياناً ، ويرسل معها أحد أتباعه أحياناً ، وقد عزم فى هذه المرة أن يصحبها إلى الشام أحد بنيه ليدربه على التجارة ، ومزاولة ما يزاوله كبراء قريش ، من هذه المهنة ذات الربح الوفير .

وكان عمرو يتمنى أن يأذن له أبوه فى السفر ، حتى يرى البلاد التى يسمع عن عجائبها وغرائبها ، ويتخيلها فى صور شتى ، وأخذت أفكاره تتطاير حوله ، وأقواها أن والده قد استمهله ، لأنه سيختاره لرحلة الشام .

ولم تخب فراسة عمرو ، فأدناه أبوه ، وسأله عما سمعه من أفواه التجار ، فأعاده كله كأنه قد نقشه فى قلبه ، ثم سأله عما يراه من صواب فى تصرفهم ، أو من خطأ كان عليهم أن يتيقظوا له ، فأجاب عمرو فى سداد كأنه يقرأ أفكار أبيه ، وأبوه يبتسم لإصابته ما فى نفسه ، ثم مد يده وربت على كتف ابنه ، وقال له فى عطف ورفق : « ستصحب القافلة إلى الشام يا عمرو فى رحلة الصيف ، فخذ أهبتك ، واستعد للرحيل » .

الحادث الأعظم

أصبحت مكة ذات يوم على غير ما تصبح فى جميع الأيام ، قد غمرت شمسُها الكعبة وما حولها من الأصنام بأشعة محرقة ، وخصت كبيرها هُبل بقسط وافر ، فظهر عقيقه أحمر قانيًا ، كأن الدم يجرى فى جميع أوصاله ، وجلس جماعة من القرشيين فى ظل البيت يضحكون كلما مر واحد من بنى عبد المطلب ، وينادون كل سائر ، يسألونه عن محمد بن عبد الله ، الذى يدعى أنه رسول الله إلى الناس كافة ، وأن ربه قد أنزل عليه قرآناً ، يتحدى به جميع الفصحاء ، ويؤكد عجزهم عن مثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، فيقهقه السائر ويقهقهون معه ، ويقف بعض المارة ليذكرهم بأن محمداً ليس أول متنبئ فى الجزيرة ، وأن عليهم تركه حتى يظهر كذبه وبهتانه .

ولم يظهر كذب محمد وبهتانه ، ووجد القرشيون أن الأمر جد ، وأن محمداً ماض فى دعوته ، وفكروا فى أثر ذلك على تجارتهم ، ومنزلتهم بين العرب ، ورأوا أن دعوة محمد قد أصبحت حديث الناس وموضع تفكيرهم ، وأن من القرشيين من استهوته هذه الدعوة ، فدخل فى هذا الدين ، وأظهر بعضهم إسلامه معتمداً على منعة قومه ، وأخفى بعضهم إيمانه خوفًا من قريش ، ووجد المشركون أن الانتظار قد يضرهم ،

ويساعد على انتشار الإسلام ، فشمروا لمحمد وأتباعه ، يعذبون من استطاعوا ، ويتوعدون من يلمحون عليه التفكير فى الإسلام ، بأخذة تباعد بينه وبين الحياة . وكان عمرو قد بلغ الرابعة والثلاثين وأصبح من الفتيان الذين تقدرهم مكة ، قد عرف البلاد المحيطة بالجزيرة ، ورحل إلى الشام ومصر والحبشة ، وعرفته مكة تياهـًا بذكائه ، وسرعة بديهته ، وقدرته على حل المشاكل العصية .

واشترك عمرو وأبوه فى جهاد هذا الدين ، واجتمعوا مع المتآمرين للقضاء عليه ، وازدادت موجة التعذيب والتنكيل بالمسلمين ، فقرروا ترك مكة إلى بلاد يمكن لهم فيها أن يعبدوا الله ، حتى يحكم بينهم وبين هؤلاء القساة الجبارين . وأشار عليهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة ، لأن ملكها النجاشى ذو دين سماوى ، يعلم مقدار الاتصال بالله ، ويعرف بشارة عيسى بمحمد فشدوا رحالهم ، واستعدوا لمفارقة مكة .

وفى جناح الليل ، تسلل هؤلاء المهاجرون بدينهم ، وركبوا البحر حتى دخلوا بلاد النجاشى ، فوجدوا فى كنفه ترحيبـًا وسعة ، وعرف من بقى من المسلمين بأن الله يُعبد هناك فى أمن ، كما عرف ذلك المشركون ، وقدروا خطر هذه الهجرة عليهم ، وخافوا أن يفر أتباع محمد كلهم إلى الحبشة وغيرها ، فيكبر سلطانهم ، وتشتد قوتهم ، ثم يهاجموا مكة ، ويردوا جزاء العدوان أضعافـًا مضاعفة ، فقرروا منع الهجرة إلى الحبشة ، كما قرروا أن يعيدوا أولئك المهاجرين إلى مكة .

واجتمعت قريش وتبادلت الرأى ، وكدّ كل منهم ذهنه ، واستعان

بكل شيطان ، ليجد وسيلة يرد بها هذه الشعلة التى اخترقت البحر . وتطلعت الأنظار إلى دهاء ، يستطيع أن يقنع النجاشى بطرد المسلمين من بلاده ، واتجهت العيون كلها إلى رجل منهم يجيد فن المكر والدهاء ، ثم هتفوا جميعاً :

ـ ليس لها إلا صديق النجاشى ! ليس لها إلا عمرو !

ونهض الرؤساء ليعدوا ما طلبه عمرو من الهدايا الثمينة للنجاشى ورجاله ، ولم يمض غير قليل ، حتى كان عمرو فى وسط البحر ، باسم القلب ، يدير الخطة فى ذهنه ، ثم يشرق وجهه رضاً وثقة ، ويتخيل نفسه عائداً من الحبشة يسوق أولئك المهاجرين ، وقريش تستقبله خارج مكة ، كما يُستقبل ملوك الروم الذين رآهم فى الشام وهم يدخلون المدن ، ويُهرَع الناس إليهم ينثرون الورود عليهم ، ويوزعون فى الآفاق هتافات الإجلال والتقدير لهم ، وأخذت كلمات قريش تتردد فى سمعه وهم يودعونه واثقين هاتفين : سيعيدهم عمرو ! سيعيدهم عمرو .

قوة الحق

حمل عمرو هداياه ، واتجه إلى قصر النجاشى الذى يعرفه ويحبه ، وأخذ ما أعده للملك ، وترك البقية للحاشية التى وعدته المؤازرة على بلوغ مقصده ، ثم استأذن على الملك وحياه ، فأدناه النجاشى وأسرع عمرو يقدم الهدايا ، والملك يعجب بها ، وينعكس إعجابه على حاشيته ، فتفتر ثغورهم ، حتى اشتد سرور النجاشى ، وردد شكر عمرو على عظم

المدية ، وحسن الاختيار ، ثم سأله عن قومه ، وعن الرسول الذى بعث منهم ، فأسرع ينسج أول شبكة من شباكه حول النجاشى ، معتقداً أنه سوف لا يتم خيوطها حتى يأمر الملك بتسليمه أولئك المهاجرين ، مربوطين فى قرن .

بل قوى الزعم فى نفسه أنه سوف لا يسلمهم أحياء بل سيقتلهم ثم يدفع إليه جثثهم ليعود بها إلى قريش ، فعزم على أن يرجوه تسليمهم أحياء حتى يتمتع هو وقريش برؤيتهم أذلة ناكسى الرءوس . قبل قتلهم ، وأخذ يخبر النجاشى أن يحمل له تحية قريش وتقديرها لعطفه وعدله ومعونته لرجالها ، واعتقادها أنه الملك العادل الذى لا يبقى الظالمين فى بلاده .

— نعم يا عمرو . لا مجرم ولا ظالم فى بلادى . هل اعتدى أحد عليكم ؟ !

— نعم يا مولاى !

— لا أظن يا عمرو . فإن الأحباش يحترمون الناس ، ولا يعتدون على أحد .

— ليس من الأحباش يا مولاى !

— وما شأنى بغير الأحباش يا عمرو ؟ !

— الظالمون المجرمون فى بلادك يا مولاى !

— فى بلادى ؟ ! لا أظن فى بلادى ظالماً يا عمرو ! إننا لا نبقى الظالمين بيننا . أعرفت أن فى بلاد الحبشة ظالمين ؟! فى أية زيارة يا عمرو ؟ !

— ليسوا أحباشاً يا مولاى ، ولكنهم من العرب .

– من العرب ؟ !

– من أنصار الرسول الذى تسأل عنه ، وعن دعوته يا مولاى .

– لجئوا إلينا ؟ !

– نعم يا مولاى ، ووجدوا فى بلادك الأمن فأقاموا ، ويفكر آخرون فى اللحاق بهم .

– شكراً لله على أن بلادى ملجأ للخائفين المظلومين !

– بل ظالمون يا مولاى !

– أيفر الظالمون يا عمرو ؟ ! لا أظن أن الظالم يفر ! إنى لا أراك اليوم فى عقلك القوى ، ولا فى فصاحتك وذهنك الذى تقابلنى به كل مرة !

– هم الظالمون يا مولاى ، قد تركوا دين آبائهم وأجدادهم ، واتبعوا ذلك الذى يدعى أنه رسول الله إلى الناس كافة !

– إلى أى شىء يدعو يا عمرو ؟

– يدعو يا مولاى إلى نبذ الأصنام ، وعبادة إله يصفه بأنه واحد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولا يشابهه أحد ، لقد طلع علينا ببدعة غريبة يا مولاى ، فناهضه العقلاء والأغنياء ، واتبعه الفقراء والضعفاء ، إنهم يسيئون الآلهة يا مولاى فهم ظالمون .

– أتحجرون على العقول يا عمرو ؟ ! أليس لكل امرئ أن يتجه كما يشاء ، حتى يهتدى إلى الحق ؟ ! وماذا يهمكم من اتباع هؤلاء لهذا الرسول ؟ ! إن الإنسان يميل بطبعه إلى ما ينفعه ؛ ويبتعد عما يضره ؛ فلماذا آذيتموهم ، حتى أجبرتموهم على الفرار من بلادكم ؟ !

ـ إنها سياسة مرسومة يا مولاى ، للاستيلاء على السلطان والزعامة فى بلاد العرب وغيرها ، فذلك الدين يبشر تابعيه بأنهم سيملكون الأرض ، وسيفتحون بلاد فارس وبلاد الروم ، وربما . . . .

وسكت عمرو قليلا ، فابتسم النجاشى وأتم عبارة عمرو قائلا :

ـ وربما بلاد الحبشة ! أتريد ذلك يا عمرو ؟

ـ لقد استحييت أن أقولها يا مولاى ، فهم يزعمون أن دينهم سوف يسود الأرض ، إنه قد أفسد علينا عبيدنا ، وجعل يغذيهم بآرائه الثائرة ، حتى شعر العبيد أنهم مثلنا ، وأصبحوا يرددون فى كل وقت أن الناس إخوة ، وأنهم سواسية كأسنان المشط ، أتوافق يا مولاى على أن عبيدك هم أبناء أبيك ، وأنك خلقت معهم من ذكر وأنثى ؟ !

ـ نعم يا عمرو ، كلنا لآدم ، ألا تعرف ذلك ؟ ! إن رسولكم يقول الحق يا عمرو !

ـ ليس رسولنا يا مولاى ، بل رسول هؤلاء الفارين الذين جئت من أجلهم ، وأرجو أن يأذن مولاى بهم ، فإن قريشاً فى انتظارهم ، وستحمد للنجاشى العظيم هذا الفضل ، سلمهم إلىّ يا مولاى .

ـ أسلمك إياهم يا عمرو ؟ ! لا يا عمرو ، ولكنى سأرسل إليهم وأستمع إلى حجتهم ، وتكون أنت أمامهم .

ـ أمامهم ؟ !

ـ نعم يا عمرو ، فإما أقنعتهم ، وإما أقنعوك ، أتأبى ذلك يا عمر ؟ !

ـ لا . . ، لا يا مولاى !

وأشار النجاشي بإحضار هؤلاء الفارين بدينهم ، وكان المهاجرون قد علموا بمجيء عمرو ، وارتابوا في أن يكون قد جاء من أجلهم ، فتجمعوا عند قصر النجاشي ، وطلبوا الإذن بالدخول عليه حتى يحبطوا خطة عمرو ، وكان عمرو يقدر ذلك ، فاتخذ للأمر عدته ، وأوصى القائمين على أمر القصر بألا يسمحوا لهم بالدخول حتى ينتهي من أمره ، فظل المسلمون أمام القصر ، حتى وجدوا جنود الملك يبحثون عن مكانهم ، فتقدموا إليهم ، وطلب رئيس الجند منهم أن ينتدبوا بعضهم لمقابلة الملك .

كان عمرو قلقاً بعد ما حاور النجاشي في أمر المهاجرين ، وأحس عطفه عليهم . وبدا اضطرابه حينما دخل جعفر بن أبي طالب [1] ، ومعه المسلمون في ثبات وقوة . وحيا جعفر النجاشي قائلا : « السلام عليك أيها الملك ورحمة الله » . فانتهز عمرو هذه الفرصة ، وصاح وهو ينظر إلى جعفر وإلى المسلمين في سخرية . كأنه قد وجد منهم مقتلا :

— أرأيت يا مولاي هؤلاء المتكبرين ، الذين لا يسجدون للنجاشي العظيم ؟ ! أيأبى مخلوق أن يسجد للنجاشي ويخضع لعزته ؟ !

فأسرع جعفر قائلا : « النجاشي أكبر من أن تخدعه يا عمرو ، فنحن لا نسجد إلا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ، ويعلم ما تسرون وما تعلنون ، تحيتنا السلام ، تحية أهل الجنة يوم يدخلها

---

(١) ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان من السابقين إلى الإسلام هو وامرأته أسماء بنت عميس ، وهاجرا معاً إلى الحبشة ، وجاهد في الله حق جهاده ، واستشهد في غزوة تبوك .

المؤمنون بما عملوا من خير » .

ونظر عمرو إلى النجاشى فوجده يهز رأسه مستحسناً كلام جعفر ، ثم سأله عن دينهم ورسولهم فقال جعفر : « أيها الملك ! كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفته ، فدعانا لتوحيد الله وألا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع ما كنا نعبد من الأصنام ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، فآمنا به وصدقناه ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فاعتدى علينا قومنا وعذبونا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان ، فلما قهرونا وظلمونا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك دون سواك ، ورجونا ألا نظلم عندك .

تأثر النجاشى لحديث جعفر ، وطلب منه أن يقرأ عليه شيئاً مما جاء به الرسول ، فقرأ عليه جعفر بعضاً من القرآن ، فزاده تأثراً وخشوعاً ، وصاح فى قوة :

ـ إن هذا والذى جاء به عيسى ، يخرج من مشكاة واحدة ، والله لن أسلم هؤلاء أبداً ، أقيموا أيها المسلمون فى بلادى آمنين ، وأنت يا عمرو ، انطلق إلى قومك ، وخذ معك هداياك حتى تكون قد رجعت بشىء كما أملت.

وخرج المسلمون رافعى الرءوس ، وخرج خلفهم عمرو يتعثر ، وقد ضاقت الدنيا فى عينيه ، لا يدرى كيف يعود إلى مكة ، ولا كيف يقابل

سخرية قريش ، وأخذ يدفع نفسه حتى ركب البحر . وكانت قريش ترتقب عودته وتعد لها العدة ، فلما وصل لم يجدوه مرفوع الرأس باسم الثغر كما ودّعوه ، وتلفتوا حوله وهم يصيحون : « ماذا وراءك يا عمرو ؟ ! » . ولم يكن خلفه إلا ابن أبى ربيعة الذى صاحبه ، ومدوا أبصارهم فى الطريق فلم يجدوا أحداً ، فتأكدوا أن عمراً قد أخفق ، وأن الإسلام قد قهره فى تلك البلاد ، وغشّى وجوههم حزن عميق ، وعادوا إلى منازلهم وقد عزموا على أمر يغطى هذه الهزيمة ، ويضع حدّاً لهذه الدعوة ، ثم اجتمعوا يفكرون ويدبرون .

جهاد يائس

جد المشركون فى إيذاء الرسول ، وصد الناس عن دينه ، وكان عمرو وأبوه وقومه ، يشتركون فيما يصنعه المشركون ، لكن عمراً أصبح كثير التفكير فى هذه الدعوة التى تشق طريقها بقوة نادرة .

وذات يوم كشف المشركون أن الإسلام قد اخترق الصحارى ، وقفز من فوق الجبال العالية ، وسار مع ركب أهل يثرب [1] الذين جاءوا للحج ، وسمعوا آيات القرآن ، واشتد غيظهم لهذا الفتح الجديد ، ورأوا أن الإسلام سيغمر الآفاق ، ثم يعود إلى مكة . فيحطم الأصنام ، ويزيل

(١) سميت بعد الهجرة مدينة الرسول .

الوثنية التى يعتزون بها ويحافظون عليها ، فاجتمعوا ليضعوا الخطة لنهاية حاسمة لمحمد ودين محمد ، وانتهى بهم الرأى إلى قتله .

وفى تلك الليلة التى تواعد فيها المشركون على إطفاء نور الله ، أمر الرسول بالهجرة ، وأنقذه الله من مخالب الكفر ، ففر من بينهم بدين الله ، وانطلق المشركون يبحثون عنه ، وعن رفيقه أبى بكر ، وينقبون فى كل مكان ، ومن بينهم عمرو بن العاص ، يدبر مع المدبرين ، ويبحث مع الباحثين ، لكنه كان يفكر ، ويرسل فكره بعيداً حيث سار الرسول ، ثم يعود به ، حيث رجال مكة يجتمعون ، ويدبرون ، ويوازن بين قوة محمد ، وقوة قريش ، ثم ينتهى إلى إقناع نفسه بالصبر والتأنى ، حتى ينجلى الأمر .

وصارت مكة والمدينة ، مقرًّا لعداوة لا يفصل فيها إلا الدماء ، وقلوب القرشيين ترجف كلما علموا بانتشار الإسلام ، وازدياد قوة محمد وتعلق أنصاره به ، ولا سيما أن المدينة التى هاجر إليها ، تتحكم فى الطريق بين مكة والشام ، حيث تتردد قوافل قريش . ولم يبعد ظنهم ، فقد عبأ المسلمون قوتهم على قلتها ، والتحموا بالمشركين فى هذا الطريق ، عند آبار بدر[1] فى معركة حامية ، انتصر فيها جند الله وانهزم أعداء الله ، وعادت فلول المشركين تجر ذيول الخيبة ، بعد أن خلفت عظماءها فى بطن الصحراء ، قد مزقت أكبادهم وفصلت رءوسهم ، وخلفت معها عدتهم

---

(١) آبار فى طريق القوافل ، بين مكة والمدينة ، بينها وبين ساحل البحر مسيرة ليلة ، وعندها وقعت غزوة بدر فى العام الثانى من الهجرة .

وعنادهم غنيمة للمسلمين .

ولم يشهد عمرو هذه النكبة الماحقة ، التي حلت بقريش ، وبلغه مصرع القوم ، ورأى أخاه هشاماً قد أسلم قبله ، وهو أصغر منه سناً ، ونظر إلى من في المدينة من أهل مكة ، وحلق خياله يرسم مستقبلهم المشرق وكاد أن ينتهي إلى قصد المدينة واعتناق الإسلام ، ولكنه أعاد النظر إلى القوتين ، فوجد قريشاً لا تزال قوية مع ما نالها من الهزيمة في بدر ، وأن جيش محمد لا يزال ضعيفاً مع ما أحرزه من نصر ، ففضل التريث حتى يتم جلاء الأمر .

ولم تصبر قريش على هزيمة بدر ، وأرسلت من يستنفر القبائل العربية ، لمعاونتهم على محمد وأنصاره ، وكان عمرو بن العاص رابع أربعة ، أخذوا يتنقلون بين القبائل ، ليقنعوها بالاشتراك في الحرب ، حتى جمعوا جموعاً كبيرة ، وخرجوا بها إلى المدينة . والتقى الجمعان فدارت الدائرة على المشركين وولوا الأدبار ، وظن المسلمون أن المعركة قد انتهت فتركوا أماكنهم ، ورأى منهم المشركون ذلك فكروا عليهم ونالوا منهم نيلا عظيماً ، ثم عادوا إلى مكة فرحين ، يمنون أنفسهم بعودة أخرى للقضاء على محمد[1] .

ونظر عمرو إلى نتيجة هذه المعركة ، وخيل إليه أن معركة أخرى

---

(١) غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة عند جبل أحد في شمال المدينة وبين أحد والمدينة ما يقرب من ميل .

قد تكون الفاصلة ، ووجد أن قريشاً لا تزال كثيرة العدد ، وأن انتصارها قد أعاد الثقة إلى القلوب ، فأقنع نفسه بأن الأمر لم ينته ، وأن عليه أن يصبر حتى يرى النصر الحاسم ، وعاد مع القوم إلى مكة ، يعينهم على ما يعملون ويدبرون ، ويطرد عن ذهنه كل خاطر يدفعه إلى الإيمان فى ذلك الوقت ، ويستعد مع المشركين لحرب محمد مرة أخرى .

آن الوقت

أخذت قريش تجلو سيوفها ، وتريش سهامها ، وتحدد حرابها ، وتدعو لحرب محمد وإبادة أنصاره ، وكان اليهود فى المدينة قد وقفوا من محمد كما تقف قريش ، قد امتلأت قلوبهم بغضاً للإسلام وأنصاره ، وحاولوا أن ينالوا الرسول بأذى ؛ فردّ الله كيدهم ، ولما أعيتهم الحيل فكروا فى تأليب الأعداء عليه ، وتكوين أحزاب من قريش ومن العرب توجه إلى محمد ضربة واحدة تكون الضربة القاضية .

وخرجت قريش ومعها عمرو ، وتلاقت أحزاب العرب واليهود خارج المدينة ، ونظر المسلمون فوجدوا أن الجزيرة العربية قد رمتهم بجموع لا قبل لهم بها ، فأقاموا خندقاً حول مدينتهم ، وأسلموا أمرهم لله يحرس دينه ويحيط رسوله برعايته .

واشتد الأمر ، وزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، لكن الله مُتم نوره ، ولو تجمعت لإخفائه كل قوى الشر ، فقذف الرعب فى قلوب

هذه الأحزاب فدب بينها الخلاف ، ثم أرسل عليهم ريحًا عاتية فى ليلة شاتية ، فكفأت قدورهم وطارت بأخبيتهم . فاضطربت قلوبهم وتحققوا أنهم دُفعوا إلى هذا المكان ، ليؤخذوا جميعًا بتلك السيوف التى خطفت رءوس زعمائهم فى بدر ، فأسرعوا بالفرار عائدين إلى مكة فى جناح الليل [1] .

وعاد عمرو إلى تفكيره وتقديره ، وهاله أن تهزم هذه الجموع ، وأن يحال بينها وبين المدينة ، ولم يكن بينها وبين اكتساحها إلا خندق ، كانوا يستطيعون اجتيازه دون عناء ، وكاد أن يرجع إلى المدينة مسلمًا تائبًا ، لكنه رأى أن قريشًا قد رجعت بقوتها ، ففضل التريث ، وأن يبتعد عن هذا النزاع الذى لم تستطع مهارته أن تدرك نهايته .

وما كاد عمرو يرجع إلى مكة ، حتى جمع رجالا من قريش كانوا حائرين مثل حيرته ، وصارحهم بأن أمر محمد يعلو علوًّا كبيراً ، وأنه يرى أن يلحقوا بالنجاشى فى الحبشة فيقيموا عنده ، ويرقبوا الفريقين من بعيد ، فإذا انتصر محمد كانوا بعيدين عن سطوته ، وإذا انتصرت قريش رجعوا إليها ، فاستحسن الجميع هذا الرأى ورحلوا معه إلى الحبشة .

ومكث عمرو ومن معه مدة يقلبون فيها النظر ، ويتابعون أخبار مكة والمدينة ، وعمرو يرى أن دين محمد يقوى كل يوم ، ويهزم كل القوى

---

(١) سميت هذه الغزوة غزوة الخندق أو الأحزاب ، وكانت فى السنة الخامسة من الهجرة .

التى تقف فى طريقه . وتأكد لديه أن ما كانوا يسخرون منه سيتحقق ، فعاد مع أصحابه إلى مكة .

وتراءت أمام عمرو جيوش المسلمين تسير مرفوعة الرايات ، يقودها العرب إلى كل مكان ، وليس بينها راية عمرو ، وتراءت له جيوش المسلمين تدهم مكة وتحطم الأصنام ، وتنتقم ممن آذوهم وأخرجوهم ، وتخيل نفسه قد وقع فى الأسر . وأصبح ذليلا يستعد للقتل ، أو يطلب العفو من محمد الذى كان حرباً عليه ، وبدت آثار هذا التفكير فى عينيه وقسمات وجهه .

ولمحت عليه قريش ما ينم عن تغيره ، فخافت أن يكون عمرو قد مال إلى الإسلام ، وبعث إليه من يكشف نواياه ويعرف حقيقة ما يسمعونه عن اقتراب إسلامه ، لكن الرجل الذى بعثوه لم يستطع أن يعرف ما عزم عمرو عليه ، وإن كان قد أحس اتجاهه .

واستمر عمرو يصارع أفكاره ، ويوازن بين أمر محمد وأمر قريش ، حتى كان يوم من شهر صفر ، من السنة الثامنة للهجرة ، استيقظ عمرو ، يعلن وجهه أنه قضى ليله ساهراً مؤرقاً . ثم امتطى راحلته ، وخرج من مكة ، لا يعلم أحد أين يسير ، ولم يبعد به السير حتى سمع صوتاً يناديه فى رفق .

- إلى أين يا عمرو يا بن العاص ؟ !

- حيث أريد يا خالد يا بن الوليد ، وإلى أين أنت ؟ !

- ولماذا تبتسم يا عمرو ؟ ! أتظن بى شيئاً ؟ !

ــ ماظننت بك إلا الخير ، أنت وصاحبك عثمان بن طلحة ، فأين تذهب ؟
ــ فى الطريق الذى تذهب فيه يا عمرو .
ــ فى طريقى أنا ؟ !
ــ فى طريقك أنت ! لقد فكرنا مثلما فكرت ، وانتهينا إلى ما انتهيت

ــ حسنًا فعلت يا خالد . لقد استقام المَنسِم [١] ، والرجل نبى .
ــ لن تجدى المكابرة يا عمرو ، لقد أقنع العقول والقلوب ، وهل بعد هذه البراهين الدامغة من شك ، ولا أدرى لماذا تنتظر قريش ؟ ! إنها مكابرة وعناد بغير الحق !

ــ سيرون عاقبة هذا العناد يا خالد ، إن دين محمد يعلو ودين الأصنام يهوى ، وقد ظللنا طويلا فى بهتاننا ، حتى أذن الله ، وكم أنا نادم على هذا التأخير ، ولا أدرى كيف أقابل الرسول بعدما قدمت .

ودخلوا المدينة [٢] . وتقدموا إلى رسول الله فى حياء يسألونه الغفران والصفح ، فبشرهم الرسول بأن الإسلام والهجرة يغفران ما تقدم .

وكان فى جند المسلمين مكان لهذين السيفين القاطعين ، سيف عمرو بن العاص ، وسيف خالد بن الوليد .

وبدأ الأفق يتسع لذكاء عمرو ودهائه ومهارته ، فلم يكد يستقر به المقام ، حتى كان على رأس جيش من المسلمين يسرع إلى قبائل من العرب شديدة البأس ، فى شوق إلى أن يهز سيفه فى سبيل الله ، كما هزه من قبل ذلك فى سبيل الشيطان .

---

(١) المنسم : خف البعير .
(٢) فى السنة الثامنة للهجرة .

الأمير

فرح المسلمون بإسلام عمرو ، وأرضى رسول الله طموحه ، فأسند إليه سرية من السرايا التى انبعثت فى الجزيرة ، وكانت قبائل قضاعة تنتشر ديارها على عشرة أميال من المدينة ، على طريق الشام ، وهى قبائل شديدة المراس معروفة بالبأس والشجاعة ، وقد بلغ النبى أنها تجمع جموعها وتتأهب للزحف على المدينة ومهاجمة المسلمين ، فاستعرض الرسول قواده ، ورأى أن عمراً خير من يردهم ، ولاسيما أن أخوال أبيه من إحدى هذه القبائل .

وسار عمرو بجيش صغير لا يتجاوز ثلاثة آلاف من أشراف المهاجرين حتى وصل إلى آبار يقال لها ذات السلاسل ، ثم وقف يستطلع خبر قضاعة . ليضع خطته على قواعد راسية ، فوجد هؤلاء القوم معبئين تعبئة قوية ، مصرين على الحرب ، ورأى أن عددهم أكبر من أن يتصدى له بجيشه الصغير ، فأرسل إلى النبى يطلب المدد ، ويصف الأعداء . ولبى الرسول دعوة عمرو ، وأمده بمائتين من عظماء المهاجرين والأنصار ، من بينهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وكان ذلك المدد تحت إمرة أبى عبيدة بن الجراح .

وصل المدد إلى ذات السلاسل ، ونظر المسلمون إلى الأفق ، فوجدوا أن وقت الصلاة قد حان فأذن المؤذن وأقيمت الصلاة ، وخطا أبو عبيدة

ليؤم الناس ، لكنه سمع صوتاً قوياً ينبعث قائلا :

ـ مه يا أبا عبيدة ، فإن الإمامة لى وحدى !

ـ ليست الإمامة لك يا عمرو ، فقد بعثنى رسول الله أميراً .

ـ بل أمّرنى رسول الله يا أبا عبيدة ، وإنما أنت مدد ، وقد أصبحت أنت ومن معك جزءاً من جيشى !

ـ ولكنهم كبار الصحابة يا عمرو !

ـ ولكنا فى جهاد يا أبا عبيدة ، تتساوى فيه السيوف والمقامات ، وأنت وهم تحت إمرتى ، لأنكم مدد لى ، وسوف أؤم الناس .

ـ إذن ، فليبق كل منا أميراً على ما هو عليه !

ـ لن يكون هنا إلا أمير واحد يا أبا عبيدة ، ولن يؤم المسلمين إلا واحد ، إننا سنعمل صفاً متحداً ، يتمثل فى هذه الصلاة .

ووجد أبو عبيدة إصرار عمرو على إمارته وحده فقال فى رفق :

ـ لا نختلف يا عمرو ، فقد أوصانى الرسول ألا نختلف .

ـ وبماذا أوصاك الرسول إذا عصيتك ؟

ـ أن أطيعك يا عمرو !

ـ إذن أنا أعصيك يا أبا عبيدة ، ولكن لا تكون الإمامة إلا لعمرو .

وتقدم عمرو فصلى بالناس ، ثم استأنف السير حتى التقى بالعدو ، وحمل عليه حملة عنيفة مزقت شمله ، وقتلت كثيراً من شجعانه ، ولاذت البقية بالفرار .

ولما رأى المسلمون هذا النصر ، ووجدوا العدو يفر فى وسط الشعاب هموا بأن يتبعوهم، ليأسروهم أو ليقتلوهم ، لكن صوت عمرو دوّى فى آذانهم : « اثبتوا ولا تتبعوا الفارين » .

ونظر بعضهم إلى بعض فى دهشة يرددون فى غضب :

— وكيف لا نأخذ أسلابهم ؟ ! وكيف لا نتبعهم حتّى نقضى عليهم ؟ ! فأجاب عمرو فى حزم : « كفى هذه الرءوس التى تملأ بطن الوادى » ! فعادت الأصوات :

— « ولكنّ من حق المحاربين أن يتبعوا الفارين ! » وصاح القائد فى عزم :

هكذا أمرتُ ، ومن تبعهم فليس له إلا أشد العقاب !

وماج بعضهم فى بعض ، ورأوا ألا يتعرضوا لسيف عمرو ، وأن يرفعوا أمره للرسول إذا عادوا إلى المدينة .

وأقبل الليل ، واشتدت سطوة البرد ، وأسرع الناس ليوقدوا ناراً يستدفئون بها ، لكن صوت القائد انبعث فى قوة ، يزجرهم وينهاهم عن إشعال النار ، فاشتد بهم الغيظ وهمّ بعضهم أن يخالف عن أمره ، فحذرهم أن يفعلوا ، وأنذر من يوقد ناراً بأن يلقيه فيها . وزادت شدة البرد حتّى كادت تدفع الأيدى إلى إشعال النار ، لكن سطوة القائد كانت قوية ، فصبروا حتّى يعرضوا أمره على الرسول ليكسر شوكته ، ويعلمه فن قيادة الجيوش إذا بدا له أن يرسله لحرب أخرى ،

وأشرق الصباح وانتشر الدفء فى ربوع الصحراء ، وهدأت موجة

البرد القاسية ، فهدأت معها النفوس الثائرة بعض الشيء ، وأمر القائد بالعودة فأسرع الجيش الظافر ، وقائده مزهو بنصره في أول جولة في الإسلام يتطلع إلى قيادة أكبر . ويمد عينيه إلى الطريق الممتد شمال بلاد قضاعة إلى الشام .

ولم يكد المحاربون يعودون إلى المدينة ويحيون الرسول ويحييهم حتى شكوا إليه قسوة عمرو ، وتفويته أسلاب قضاعة عليهم ، وأنه أذاقهم ليلة قاسية البرد ، وأبى أن يستمع لآراء كبرائهم .

فابتسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه الشكوى ، ونظر إلى عمرو ليُسمع المسلمين رأيه ، وقال في هدوء وجلال :

ـ ماذا تقول يا عمرو ؟

ـ لقد رأيت الخير يا رسول الله ، وما كان لي أن أصنع غير هذا !

ـ ألا تركتهم يتبعون المنهزمين ؟

ـ كنا نحارب في بلادهم يا رسول الله ، وقد خفت أن يكون لهم مدد ، فينقض على المسلمين إذا تبعوهم ، وبعدوا عن مواقعهم .

فابتسم الرسول ونظر إلى المسلمين وإلى عمرو ، ثم قال :

ـ وما شأن النار يا عمرو ؟ ألم تكن الليلة قاسية البرد ؟

ـ لقد أحسست بما أحسوا يا رسول الله ، وكنت أود أن أشعلها لأستدفئ ، ولكني خفت أن يمتد ضوؤها فيكشف المسلمين لأعدائهم وهم قلة ، فينقضوا عليهم .

وافتر ثغر الرسول ، ونظر إلى الشاكين فوجد أساريرهم تنفرج عن ابتسامات الرضا والتقدير ، فعرف أنهم قد اقتنعوا برأى القائد البصير ، ثم اتجه إلى عمرو قائلا : « استعد يا عمرو لفتح جديد » .

السفير

ما أقبل شهر ذى الحجة ، سنة ثمان من الهجرة ، حتى كان عمرو يسير إلى مملكة عُمان ، فى الجنوب الشرقى من الجزيرة العربية ، وكان أهلها يعبدون النار ، يحكمها ملكان أخوان ، الأكبر منهما يسمى جيفر ، والأصغر يسمى عباداً .

ولم يستصحب عمرو فى هذه المرة جيشاً ، وسار مكتفياً بعقله ودهائه وسعة حيلته ، ولم تكن عمان مجهولة لديه ، فقد كانت بقاع الجزيرة كلها تعرف عمراً وظرفه وعقله وسرعة بديهته ، وحمل معه رسالة من النبى إلى الملكين ، ومضى حتى وصل إلى تلك البلاد .

كانت رسالة النبى للملكين كليهما ، لكن عمراً لم يذهب إلى جيفر الأكبر ، بل اتجه إلى عباد الأصغر لأنه كان أحلم من أخيه ، وأسهل خلقاً ، ولأن الأمر كان لجيفر ، فهو أكثر حرصاً على الملك ، وأجدر أن يرفض الدعوة .

واستأذن عمرو على عباد ، ودخل عليه وحياه ثم أخبره أنه موفد إليه

وإلى أخيه من قبل الرسول . فالتفت إليه عباد وقال فى هدوء :

— وماذا يريد نبيك يا عمرو ؟ !

— أن تدخلا الإسلام ، وتؤمنا بالله ورسوله ، وتنبذا عبادة النار . وتعبدا خالق السموات والأرض والماء والنار .

— أتركتم عبادة الأصنام يا عمرو ؟

— نبذنا الضلالة التى غشت عقولنا ، حتى مزقها ضوء الإسلام .

— ومتى أسلمت أنت يا عمرو ؟! عهدتك حرباً على الإسلام وصاحبه!

— لقد أسلمتُ يا عباد ، ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ، لقد هدى الله يا عباد وأذن لى بالخير فأسلمت .

وصمت عباد قليلا ثم واصل حديثه قائلا :

— علمنا أن فى دين محمد بعثاً وحساباً وعقاباً . أكذلك يا عمرو ؟ !

— نعم يا عباد ، وإلا فأين تذهب الأعمال الصالحة ؟ وأين يذهب المجرمون المعتدون ؟ لابد من بعث ، لينال كل امرئ ما قدمت يداه .

— دينكم دين الآخرة يا عمرو !

— بل دين الدنيا والآخرة يا عباد ، فيه سعادة الدارين ، وإذا أسلمت أنت وأخوك ظللتما على ملككما وسلطانكما ، تنفذان فيه أمر الله ، فتنصران المظلوم وتعينان الضعيف . وتأخذان من الغنى حق الفقير ، أرأيت أفضل من هذا لصلاح الدنيا ؟ وإذا صلحت الدنيا صلحت الآخرة

يا عباد ، فأسلم يؤتك الله ثواب الدنيا والآخرة .

هز عباد رأسه ونظر إلى عمرو ؛ ثم قال في هدوء وتأثر :

ـ ما أحسن هذا الذى يدعو إليه دينك يا عمرو ! ولو تابعنى أخى لأسرعنا إلى رسولك فآمنا به وبرسالته ، لكن أخى ضان بملكه ، لا يرضى أن يكون تابعاً ، بعد أن كان متبوعاً له الأمر .

ـ لن يصير تابعاً يا عباد ، سوف يظل على ملكه ، إن الرسول يهدى إلى الخير يا عباد ، لا يريد أن يسيطر على الناس ، وإنما يبلغ أمر الله ؛ فمن آمن وعمل صالحاً فقد أصبح عضواً فى الإسلام ، ومن خالف وعاند أخرج من ضلاله بقوة الله لخيره وسعادته ، فماذا ترى يا عباد ؟ .

ـ أرى أن أذهب معك إلى أخى لتقرأ عليه كتابك ثم تسمع رده وتتصرف بلباقتك وذكائك ، وأنا من خلفك ، أعينك وأدفعه إلى قبول دعوتك ، وأرجو أن يأذن الله له بالإسلام ويشرح قلبه للإيمان .

أخبر عباد أخاه بمقدم عمرو وما دار بينهما من حديث ، وطلب الإذن له حتى يرى الرسالة ، لأن عمراً يريد أن يسلمها إليه يداً بيد ، لكن جيفر لم يأذن لعمرو ، وظل عمرو منتظراً ببابه أياماً ، وعباد يقابله ويحادثه ، ثم ينقل حديثه إلى أخيه ، ويطمئن عمراً بأنه سيأذن له .

وأخيراً دخل عمرو برسالة الرسول على جيفر ، وحياه وسلمه إياها ، فأمره بالجلوس وأخذ يقرؤها ويطيل النظر فى سطورها ، وعمرو يختلس النظر إلى وجهه ليكشف ما ترسمه كلماتها عليه من علامات الغضب

والرضا ،وقرأ جيفر : «بسم الله الرحمن الرحيم ،من محمد عبد الله ورسوله ، إلى جيفر وعباد ابنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد . فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين . وإن أقررتما بالإسلام ، وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما » ، ثم دفع الرسالة إلى أخيه عباد فقرأها ، واعتدل جيفر ، والتفت إلى عمرو ثم قال فى كبرياء :

— نبيك مرسل إلى الناس كافة يا عمرو ! أليس كذلك ؟ !

— إلى الناس كافة ، وإلى الإنس والجن أيها الملك !

— وماذا يصنع محمد إذا رفضتُ دعوته ؟ !

— إن الرد فى آخر الرسالة ! أتتفضل فتعيد قراءتها ؟ !

— وماذا صنعت قريش يا عمرو ؟

— إما راغب فى الدين ، وإما مقهور بالسيف ، وإن لم تسلم أنت وتبعه وطئتك خيله ، وأبادت رجالك ، فأسلم تسلم وتظل والياً على قومك ، وتحقن دماءهم ، وتريحهم من النزال .

— لقد بلغنى أن رسالات مثل هذه أرسلت إلى الملوك فسخر بعضهم من نبيك ومزق رسالته وأهان رسله !

— ستدهمهم خيل الإسلام ، وسيرون أى منقلب ينقلبون !

— وملوك الفرس والروم ؟ !

ــ وملوك الفرس والروم وكل خارج عن عبادة الله ، وليست بلادهم ولا بلادك بعيدة عن أسنة المسلمين ، التى تتطاير إليها قلوب الكافرين فتدخلها دون عناء .

ــ أتهددنى يا عمرو ؟ !

ــ بل أقدم لك الخير ، ولست أريد إلا الإجابة عن الرسالة حتى أعود بها إلى الرسول ، وإن كنت لا أزال كبير الأمل فى حزم جيفر وبعد نظره .

رفع جيفر رأسه ، ثم دار به فى أنحاء المكان ، ثم أعاد النظر إلى عمرو قائلاً :

ــ سأجيبك غداً يا عمرو !

وخرج عمرو وقد دفع فى قلب جيفر خوفاً ثقيلا ، وملأه مع هذا الخوف بالأمانى ، وهزه هزة أرقت ليله ، حتى أصبح وقد انتهى إلى رأى .

وأشرق الصباح فأسرع عمرو وعباد إلى جيفر ، وقد كبر عندهما الأمل فى أنه اهتدى إلى الإسلام ، لكن عمراً لم ير فى وجهه نور الهدى ولا بسمة الإيمان ، فعلم ما انتهى إليه واستعد للجواب ، واتجه الملك إلى عمرو فى عزة قائلا :

ــ قد رأيت الرأى يا عمرو .

ــ خيراً إن شاء الله !

ــ خير لنا وشر لك .

ــ شر لى ؟ ! ومن الذى يستطيع أن يصيبنى بشر ؟ !

— شر أو خير ، بلغ محمداً أن عُمان بعيدة عن سيوفه . وأن فيها سيوفاً ورماحاً ستردده إذا حدثته نفسه أن يقترب منها .

أخبره أن مُلك الآباء والأجداد لا يفرط فيه بهذه السهولة . لقد غركم النصر على قريش حتى طمعتم فى بلاد الله ، وطار بكم الخيال حتى أدخلكم بلاد الأكاسرة والقياصرة(١) ! أسمعت يا عمرو ؟ !

— سمعتُ ، وعليك أن تتحمل إثم عنادك !

وخرج عمرو من المجلس رابط الجأش ، عالماً أن تلك الغضبة دفعة من دفعات الملك والخوف على السلطان ، وأن جيفر سيعود إلى رشده ، وتظاهر بالعزم على الإسراع بالعودة ليبلغ الرسول .

وفطن عباد لعواقب عناد أخيه ، وأخذ يوضح له حقيقة الأمر ويبسط له ما علمه من قوة المسلمين ، ويحذره جنودهم التى لا يقف أمامها معاند ، ولا تصبر لها قوة ، وينصح له بقبول دعوة النبى واعتناق الإسلام ، ويعيد معه قراءة الرسالة مرة بعد مرة ، ويضع إصبعه عندما يخافه من كلماتها ، مبيناً صراحة الرسالة فى بقاء ملكه له ، وأن هذا الملك سيزول إذا استمر فى هذا العناد ، وما زال به حتى اقتنع وعاد إلى الصواب .

وأسرع الجند يبحثون عن عمرو خائفين أن يكون قد غادر عمان . وجدّوا فى البحث حتى وجدوه ، كأنه على أهبة السفر ، فأقبل على الملك

(١) الأكاسرة ملوك الفرس ، الواحد يسمى كسرى وهو لقب لكل ملك من ملوكهم ، والقياصرة ملوك الروم الواحد قيصر ، وهو لقب لكل ملك منهم .

فوجده هاشًّا باشًّا ، يمد يده إليه مصافحاً، ويسأله أن يعلمه كيف يؤمن بالله وبرسوله .

وردد عمرو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمَداً رسول الله ، وردد جيفر وعباد هذه الشهادة خلفه ، ثم طار فى عمان أن الملكين قد آمنا ، فأسرع الناس أفواجاً يدخلون فى دين الملك .

وغزا عمرو هذه المملكة بسيف العقل والسياسة ، ولم يرق فيها قطرة من دم ، وأرسل بهذا الفتح إلى رسول الله فسر به سروراً عظيماً ، وكافأه بولاية الزكاة فى تلك البلاد ، فأقام مسروراً برضا رسول الله وبهذا المنصب المالى الكبير ، يجمع المال من الأغنياء ويوزعه على الفقراء ، ويأخذ منه نصيبه الذى فرضه الدين ، ويعلم الناس قواعد الإسلام ، وينشر نور الله فى تلك البقاع محبوباً موفقاً مرضيًّا عنه ، حتى جاءه ذات يوم كتاب من المدينة ، ففزع حينما نظر إليه لأنه لم يكن مختوماً بخاتم الرسول .

فض عمرو الخطاب بيدين مرتعشتين ، وقلب راجف خائف ، وألقى بصره سريعاً بين سطوره ، وأخذ يقرأ والدموع تتساقط من عينيه والجزع يرتسم فى وجهه ، لأن الخطاب كان من أبى بكر يخبره بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وباختياره خليفة بعده ، ويأمره أن يبقى كل ما صنعه الرسول كما هو ، فلا يحل شيئاً مما عقد ، ولا يعقد شيئاً مما حل .

وتمالك عمرو بعض قوته ، وخرج على الناس ينبئهم بوفاة رسول الله ، ثم جلس يتقبل فيه العزاء كما يتقبله فى أعز عزيز عليه ، واستمر فى

إخلاصه حتى أتاه أمر أبي بكر يستدعيه لجهاد شاق جند فيه المسلمون جميعاً ؛ فطار عمرو إلى المدينة مرحباً بالضرب والطعان فى سبيل الله ، يود أن يعرف وجهته وإن كان خياله لا يزال يمتد إلى طريق الشام .

الجزيرة الثائرة

كان بعض العرب قد أسلم ظاهراً ، وقلبه ساخط على دين محمد ، لأنه باعد بينه وبين الحرية الواسعة التى كان يعيش فيها دون رقيب ولا محاسب ، ولم يكن مضى بهم زمن طويل يروضهم على فرائض الدين من صلاة وصيام وزكاة ، فما علموا بقبض [1] الرسول حتى نفضوا أيديهم من بيعته ، وثاروا يخلعون ما لبسوه من حلل الإسلام النقية الطاهرة ، ونهض أبو بكر لقتالهم جميعاً [2] .

وتلقى عمرو خطاب الخليفة فأصبح على ظهر الطريق من عمان إلى المدينة ، يخترق القبائل الثائرة .

ومر ببلاد بنى عامر فوجدهم يراودون أنفسهم على الردة ، والانضمام إلى الثورة التى تزيد اشتعالاً كل يوم ، ونزل عند زعيمهم قُرّة بن هبيرة ، فاحتفل به وأكرم مثواه ، ولم يتحدث إليه فى شىء عما يراود قومه ، حتى عزم على الرحيل ، فخلا به وقال فى هدوء :

---

(١) قبض الرسول صلى الله عليه وسلم فى السنة الحادية عشرة من الهجرة .
(٢) سميت هذه الحروب : حروب الردة .

— أرأيت هذه الثورة يا عمرو ؟ !

— شرارة ضئيلة ستطفأ يا قرة !

— ولكنها الجزيرة كلها يا عمرو !

— وقد كانت كذلك قبل الإسلام ! أنسيت يا قرة ؟ !

— لكن محمداً قد مات يا عمرو !

— وبقى دينه يا قرة ، وبقى نور الله فى قلوب المؤمنين ، وبقيت سيوف قوية ستغمد فى قلوب المرتدين ، وبقى نور محمد يا قرة !

— أأنت واثق من النصر يا عمرو ؟ !

— أراه كما أراك يا قرة أمامى ! إن السيوف التى جاهدتهم ليسلموا ، ستجاهدهم ليعودوا ، وستكون أقسى وأعنف يا قرة !

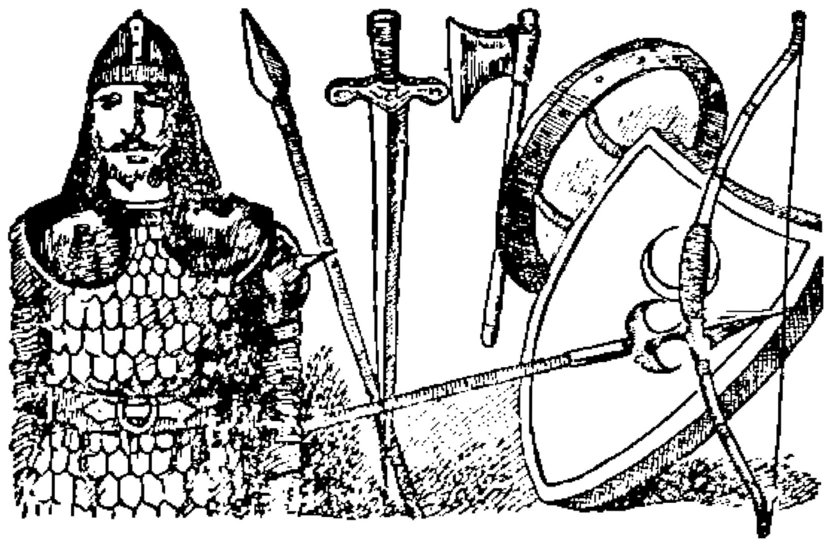
— ألا ترى لذلك حلاً غير الحرب يا عمرو ؟

— أن يرجعوا إلى حوزة الإسلام ، فيمنعوا سيوف المسلمين من رقابهم.

— حلاً من جانب الخليفة يا عمرو ، حلاً يريحكم ويريح الناس ، الزكاة يا عمرو ! إن العرب لا تطيب أنفسهم بهذه الضريبة ، فإن أعفيتموها من الزكاة فستسمع لكم وتطيع .

— وإن أبينا يا قرة فلن تسمع لنا ولن تطيع ! أكفرت يا قرة ؟ ! إنى أراك على شفير جهنم ، تحاول أن تردى فيها مع من تردى ، أتخوفنا بالعرب ؟ ! فوالله لأوطئن عليهم وعليك الخيل ، ولأصلن إلى عنقك ، ولو أخفيته فى يد الجن !

قذف عمرو بهذه الكلمات فى قلب قرة وقومه ، ثم أسرع إلى المدينة ، فوجد أحد عشر لواء ، من بينها لواء عمرو بن العاص ، فلم يخلع سلاحه ، واتجه كل لواء إلى ناحية من الجزيرة ، وكانت وجهة عمرو بلاد قضاعة ، التى ذاقت مرارة سيفه فى ذات السلاسل ، فوجدهم متجمعين للقائه ، قد شحذوا السيوف وحددوا أسنة الرماح ، فانقض عليهم أسداً هادراً حوله أسود زائرة قد ألهبها شجاعة القائد ، فأخذت تطير الهامات وتمزق الأجسام وتفرى العظام .



وأحس الأعداء بسيف عمرو ، وتذكروا لهيبه فى ذات السلاسل ، وعلموا أن عشرة سيوف مثل سيفه انقضت على الثائرين أمثالهم ، فأسرعوا تائبين مستغفرين مقدمين الزكاة مبادرين إلى الصيام والصلاة .

وعادت الألوية تزهو بالنصر ، وتعلن عودة المرتدين جميعاً إلى ساحة الإسلام ، لكن هذه السيوف قد حميت وتحركت ، وأخذت تنظر إلى المشرق والمغرب ، وأحس أبو بكر أنها لا تريد دخول أغمادها ، وكان من بينها سيف عمرو ينظر ويطيل النظر ، ويشير ضاحكاً فى رونقه إلى بلاد الشام ، فلا يزال فى الدنيا بلاد لم تطعم الإيمان ، وقد دعاهم الرسول بالحسنى فأبوا ولم يبق لهم إلا السيف .

عرف أبو بكر ما تريد هذه السيوف ، فأرسلها إلى المشرق لتزيل ظلم كسرى ، وإلى الشمال لتزيل ظلم الروم ، وسار من بينها سيف عمرو يتوهج ويسرع إلى الفتح الجديد .

الألوية الأربعة

انطلقت السيوف الإسلامية مخترقة حدود الجزيرة ، ومدت جناحاً طويلا إلى الشرق ، أخذ يضرب جيوش كسرى فتفر فزعة من هول ما تلاقيه .

وكان الروم فى الشام قد تيقظوا لهذه الدولة العربية التى اكتملت وحدتها ، وخرجت جيوشها عن بلادها ، ورأوا أنهم إن لم يكسروا شوكة هذه الدولة ، فسوف تكتسح أرضهم ، كما سمعوا عن بشارة رسولها لأصحابه ، فحشد إمبراطورهم جيشاً كبيراً على حدود الشام ، ليلتهم به هذه الدولة قبل أن تفكر فى نزاله .

ولم يكن المسلمون فى غفلة عما يصنع هرقل ملك الروم ، وكان الجناح الثانى من أجنحة النسر الفاتح ، يتأهب ليمتد إلى بلاد الشام ، فيضربها كما يصنع الجناح الشرقى المنتصر ، وكان عمرو بن العاص يرجو أن يكون قائد هذا الجناح كما أن خالد بن الوليد قائد ذلك الجناح ، لكن الخليفة رأى أن تكون ألوية الشام أربعة ، أحدها يتجه إلى حمص[1] على نهر العاصى ، بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ، وواحد يتجه إلى دمشق على نهر بردى ، بقيادة يزيد بن أبى سفيان ، والثالث يقصد إلى وادى نهر الأردن[2] ، بقيادة شرحبيل بن حسنة ، والرابع يتجه إلى فلسطين [3] بقيادة عمرو بن العاص .

وقد عقد الخليفة هذه الألوية ، لكنه تذكر ما حدث فى ذات السلاسل بين عمرو وأبى عبيدة ، فأوصى عمراً ساعة الوداع أن يكاتب أبا عبيدة ، وينجده إذا استنجد به ، ولا يبرم أمراً إلا بمشورته .

القائد إذن أبو عبيدة ؟ ! لكن الإمرة لا تعطى ولكنها تنتزع بالمهارة والعمل ! أربعة جيوش تسير فى أربع جهات ؟ ! لو كنا جيشاً واحداً لكان أجدى ، ولكان أقدر على مواجهة قوة الروم الماثلة !

وهكذا كان عمرو يحدث نفسه وهو يبتعد عن المدينة ، مقدراً أن الأمر سينتهى إلى ما يراه .

---

(١) بين دمشق عاصمة الشام وحلب .

(٢) كانت الأردن تشمل الغور وطبرية وصور وعكا ، وكان نهر الأردن الكبير يصب فى بحيرة طبرية .

(٣) آخر كور الشام من ناحية مصر ، عاصمتها بيت المقدس .

وسارت هذه الجيوش فى العام الثالث عشر من الهجرة ، حتى بلغت مواقعها التى حددت لها ، منتظرة ما يكون من أمر الروم .

هؤلاء العرب أصبحوا دولة ؟ ! اتحدت كلمتهم وصاروا يغزون بلاد الملوك الذين أخضعوا الأرض ؟ ! ماذا ألف بين هؤلاء جميعاً ؟ ! ماذا وحد بين هؤلاء جميعاً ؟ ! دين ؟ ! نحن أصحاب دين وقوانين ،



لكن لا تكفى القوانين المكتوبة ، ولا تفيد قواعد النظام المدونة ! لا بد من القلب المؤمن المصدق ، ذلك القلب هو الذى يحرك السيف ويهز الرمح ! من أين أتى هؤلاء بالسلاح الذى اجترءوا به على مهاجمة الفرس والروم ؟! لقد كانوا يقدمون علينا تجاراً ، ليس فى أيديهم إلا بعض سيوف هزيلة ورماح ضعيفة يحمون بها قوافلهم ، أتلك عدتهم التى يهاجموننا بها؟! ما أهونها عدة ! إننا سنخطف أرواحهم فى لحظات ، ولكن لعلهم اخترعوا سلاحاً جديداً لا نعلمه ، فلا بد من كشف الأمر قبل الإقدام عليهم .

كان هذا حديث قائد الروم لنفسه حين سبح فكره ليضع خطته ، ثم دعا رجلا يثق به من عرب الشام وأمره أن يذهب إلى معسكر من هذه المعسكرات التى تتوهج نيرانها بالليل ، وتقفز خيولها فى النهار ، ويندس بينها ثم يعود بخبرها وأنواع أسلحتها ، فأسرع العربى وقضى ليلة بين المسلمين ، ثم عاد فى الصباح إلى قائد الروم .

— ماذا وراءك يا عامر ؟

— جيوش جرارة كأنها السيول المتدافعة يشد بعضها بعضاً !

— لكن العدد ليس كل شىء فى الحرب يا عامر ، ونحن أكثر منهم عدداً .

— عدد وعدة يا سيدى !

— عدة ؟ ! ومتى كان للعرب عدة يا عامر ؟ ! ما علمنا لهم إلا نصالا قليلة يتضاربون بها إذا اختلفوا ، ورماحاً قد تنتصر بها القبيلة على القبيلة ،

أما أن تنتصر بها على الروم ، فذلك بعيد يا عامر ! وكيف هذه العدة يا عامر ؟ ! أرأيتها ؟

— عدة قوية يا سيدى ! لقد وصلوا أفئدتهم برماحهم ، وأطالوا سيوفهم بأوتار قلوبهم ، كبيرهم كصغيرهم ، وسيدهم كعبدهم ، يفترشون الغبراء ، ويقفزون على الخيول كأنهم السهام ، يؤذن مؤذنهم فيتراصون كتلة واحدة تركع إذا ركع وتسجد إذا سجد ، لا يتخلف منهم أحد ، لا كبير ولا صغير أمام قانونهم ، أليس ذلك كله من عدد الفوز ياسيدى؟! ماذا يعمل السلاح القوى مع القلب الخائف ؟ !

— أتظن عرب الشام معنا يا عامر ؟

— وهل فى ذلك ريب يا سيدى ؟ ومن الذى يخامره شك فى إخلاص عرب الشام لسادتهم الروم ؟ !

— أتتحدث بقلبك يا عامر ؟ !

— أترتاب فى إخلاصى يا سيدى القائد ؟ إن عرب الشام رهن إشارتك ، فمر تنطلق سيوفهم ، وتندفع رماحهم ، وتطير أيديهم رءوس العرب .

— تطير رءوس العرب أمثالهم ؟ ! شكراً لك يا عامر .

وانصرف العربى وترك القائد الرومانى وحده بعد أن قذف الرعب فى قلبه ، فلف القائد رأسه براحتيه ، وراح فى تفكير عميق ، ثم انتفض مفتر الثغر كأنه قد عثر على رأى يقابل به هذه القوة التى تفضل الموت على الحياة ، وتدعو الجنة بظبا السيوف ، لكن خاطراً جديداً قفز إلى ذهنه . فأعاده مقطب الوجه يحادث نفسه فى هم ثقيل :

ــ وهل نأمن أهل الشام ؟! إننا قد ظلمناهم واستأثرنا بكل شيء دونهم ، ليس لنا ما نرجوه من عون إلا عند ملوك الغساسنة [١] الذين كنا نرشوهم ليردوا عنا هؤلاء العرب ، لكن هؤلاء سيحنّون إلى بني جنسهم ؛ وسوف تذوب سيوفهم إذا لامست رقاب إخوانهم! وهل أستطيع إزالة الخوف الذي تجمع في قلوب جند الرومان من سطوة المسلمين ؟ ! لقد بلغهم أن سيوف هؤلاء المسلمين تشير إلى قلوب الأعداء فتتطاير إليها لتتصرف فيها كما تشاء ، إني أعرف ما يتردد في أنحاء دولتنا اليوم من الخوف والتخاذل ؛ إني لا آمن أن ينصرف الناس عنا إذا جد الجد ، ولا آمن أن يفر جنودنا إذا دارت رحى الحرب واندفع هؤلاء المسلمون يكبرون فتهز تكبيراتهم جوانب الأرض ، إنه الإيمان الذي ينتصر ! ومن لي بالإيمان أملأ به قلوب جنودي ؟ !

ودارت الأرض بقائد الروم ، وانطلق ذهنه يقلب صفحات القيادة التي مارسها في حياته الطويلة ، واشتد به اليأس ، وكاد يعلن عجزه عن مواجهة المسلمين ، لكن فكرة جديدة أسعفته فانتفض صائحاً :

لا ، لن أنكل عن القتال ! لن ألطخ شرفي بخزي الأبد ، سوف أقاتلهم ، سوف أريهم أفانين الحروب ، سأبعث في جنودي روحاً قوية . السلاسل ! السلاسل ! سأقيد جنودي بالسلاسل حتى لا يفروا ، سأربط

---

(١) كان الروم قد أنشئوا إمارة على حدود الشام يتولى أمرها العرب ، سميت إمارة الغساسنة يحكمها بنو غسان، وقد كان لملوكها سلطان وقوة ، واشتهر من بينهم أمثال الحارث بن جبلة الذي عينه الإمبراطور « جستنيان » سنة ٥٢٩م أميراً على جميع قبائل العرب في الشام ومنحه لقب بطريق .

بعضهم ببعض ، سأبعث لكل فريق من هؤلاء العرب بجيش كبير يلتهمه في ساعة من نهار ، لقد وزعوا أنفسهم في بلاد الشام فهان أمرهم ، أين هؤلاء العرب أبناء الخيام والرمال من قادة الروم المحنكين ؟ ! سأنتصر ! سأنتصر ! .

صاحب الراية

أسرع قائد الروم بتنفيذ خطته ، فسارت جيوش أربعة هائلة ، أقل جيش فيها يناهز تسعين ألفاً كاملي العدة والعتاد ، ونظر المسلمون إلى هذه الجموع الحاشدة فخافوا أن تحطم قواهم ، وفكروا فيما يصنعون ، أيهاجم كل فريق ما وجه إليه ويستعجل الشهادة أم يتقهقر إلى الصحراء حتى يأتيه المدد ؟ وتنادى المسلمون باستعجال الشهادة وأبوا أن يتقهقروا شبراً واحداً ، وأسرع القواد بالكتابة إلى الخليفة يعرض كل منهم الأمر وينتظر التوجيه ، ولم ينس أحد منهم عمراً ومهارته في الظروف العصيبة ؛ فكتبوا إليه جميعاً يستشيرونه .

وسارت كتب ثلاثة من عمرو إلى القواد ، تقترح اجتماع الجيوش الأربعة فتتم عدتها عشرة آلاف فيصبحون قوة كبيرة ، ورأى أن يكون اجتماعهم على نهر اليرموك جنوب دمشق ، لأن واديه أصلح مكان تختطف فيه هامات الأعداء ، وسارت من المدينة كتب أربعة يشير فيها الخليفة على القواد بمثل ما أشار به عمرو ، فيضمون جيوشهم في مكان واحد ليكونوا بذلك قوة لا تهزم من قلة .

وأحبطت هذه الخطة خطة قائد الروم ، فعاد يجمع جيشه ويتقدم به

إلى اليرموك ، حتى وقف به فى السهل أمام جيش المسلمين ، وهو مزهو بالسلاسل التى تشد الأوساط ، مغتر بتلك الألوف المؤلفة وإن كان هذ السهل لا يتسع لحركاتها ، ولا يستطيع أن يتقهقر فيه إذا قدر له الهزيمة ، وأخذ القائد يحدث أعوانه فى سخرية من العرب قائلا :

ــ كيف يظن هؤلاء أنهم سيفلتون من أيدينا ؟! هجمة واحدة سوف تسحقهم ولا تبقى منهم باقية ! إننا نستطيع أن نقبض عليهم بأيدينا ولا حاجة بنا إلى السلاح ! إن قوتنا كبيرة لو تجمعت أنفاسها لأطارتهم من فوق الأرض ! أرأيتم هذه الفكرة الجديدة ؟! فكرة السلاسل التى تشد الأوساط !

ــ ولكنها لا تشد القلوب يا سيدى !

ــ أمرتاب أنت فى قوتنا وعزمنا ؟! أبعد هذه الفكرة الجبارة يخامرك شك فى النصر ؟! ألم تر العرب بملابسهم المرقعة وعدتهم الهزيلة ؟! ألم تر إلى سيوفهم وقد شدوا على مقابضها خرقاً بالية حتى تثبت فى أيديهم ؟! أتظن أنهم ينالون بها الرءوس التى تحصنها الخوذات المتينة ، وهذه الصدور الملفوفة بالدروع السابغة ، وتلك الأذرع والأرجل المغلفة المنيعة ، ثم السلاسل ! ليس بيننا بعدها جبان ؛ لأن الشجاع سيشد الجبان ويثبته !

ــ وكيف إذا شد الجبانُ الشجاع ؟ !

ــ لا جبان ! لا خائف ! ضعوا النصر أمامكم وتقدموا سراعاً فما هى إلا ساعة حتى يرى العرب جزاء اجترائهم على سادتهم الرومان !

ــ لقد جاءهم مدد من الشرق يا سيدى القائد !

ـ علمت أن مدداً جاءهم بقيادة رجل منهم يسمى خالد بن الوليد يقال إنه هازم الفرس [١] ، لكن الروم غير الفرس ، سنريهم ألوان الموت ، سنزيلهم من جزيرة العرب كلها ، هيا إلى النصر ، هيا إلى الطعان .

والتقى الجمعان ، وحمل الروم على المسلمين حملة جبارة جمعوا فيها كل قوتهم ، وركزوا فيها كل ما مارسوه من فنون الحرب مئات السنين ، وقعقعت السيوف ، وتحركت الرماح ، وطارت الرءوس ، وتساقطت الجثث . واشتد الرومان فى اندفاعهم فانكشف المسلمون وولى صاحب رايتهم ، وولى المسلمون وراء تلك الراية الطائرة إلى الخلف ، لكن فارسين اندفعا إليها ، يتسابقان لانتزاعها من صاحبها ، وكانت يدٌ منهما أسبق من الأخرى : فاستقرت الراية فى يد عمرو بن العاص ، واندفعت إلى الأمام تشق طريقها إلى صدور الأعداء .

وعاد المسلمون يتقدمون خلف رايتهم ، واشتد القتال ، وبرزت الجنة أمام الأبطال ، فأطارت سيوفهم الهامات ، وشقت الرماح الصدور ، ولم ينقذ الروم إلا ظلام الليل ، قد أسرع يعلن هدنة قصيرة إلى الصباح .

مدت الشمس فى الصباح أشعتها تتحسس الأرض الغارقة فى الدماء ، فارتطمت تلك الأشعة برحى الحرب الدائرة ، وبالدم المتقاطر والجثث

---

(١) كان خالد بن الوليد يفتح العراق ويهزم الفرس متنقلا من نصر إلى نصر ، ولما رأى المسلمون فى الشام مطاولة الروم طلبوا مدداً من الخليفة أبى بكر فكتب إلى خالد يأمره بالمسير بنصف من معه من الأبطال ، فاخترق بجيشه الصحراء ووافى المسلمين باليرموك .

المتساقطة ، وبسيوف المسلمين ترتفع لتتخلص من الهامات ، ثم تنخفض لتفلق غيرها .

واشتدت وطأة المسلمين وأحس الروم بقسوتها ، وشدت السلاسل أوساطهم فعاقت حركاتهم ، وجذب الجبناء منهم الشجعان ففروا جميعاً تاركين أقفيتهم لسيوف المسلمين تقطع منها ما تشاء ، وعمرو يشد العزائم ، ويلهب الحماسة ، ويدعو إلى النصر ، حتى لحقوا بالعدو وحطموا ما بقى من قوته .

وعاد المسلمون إلى مضاربهم فرحين بنصر الله ، وهب عمرو يستعد لإتمام الفتح ، وتحقيق بشارة الرسول (١) .

أرطبون العرب

انساب جيش المسلمين فى الشام ينتقل من نصر إلى نصر ، ولواء عمرو بين الألوية سلاح نافذ وقوة مدبرة ، حتى فتحوا دمشق ، ثم ترك عمرو أبا عبيدة ومن معه يفتحون شمال الشام ، وسار بجيشه إلى فلسطين ليقضى على قوة الروم المستعدة لنزاله بقيادة والى فلسطين الذى يسمى أرطبون .

كان هذا الوالى داهية من دهاة الروم ، مشهوراً ببعد النظر والقدرة الفائقة على التخلص من المآزق الضيقة ، وكان قد استعد للقاء المسلمين فركز قوة كبيرة من جنده فى بيت المقدس ، ومثلها فى غزة على مقربة

---

(١) كانت موقعة اليرموك فى السنة الثالثة عشرة الهجرية .

من حدود مصر ، وأخرى فى الرملة بين القدس وعسقلان على شاطئ بحر الروم ، ثم ركز قوته هو فى مكان يسمى « أجنادين »[١] .

ووقف عمرو أمام جيش كثيف كامل العدد والعدة ، ولم يكن يتوقع أن يحشد الأرطبون فى فلسطين مثل هذا الجيش ، وكان أبو بكر الخليفة الأول قد توفى وخلفه عمر بن الخطاب ، فأرسل عمرو إلى عمر يصف قوة أعدائه واستعدادهم ، وكان عمر جالساً بين أصحابه فى المدينة يدير المعارك الناشبة بين قوة الحق وقوى الباطل فى الشرق والغرب ، فلما قرأ كتاب عمرو تهلل وجهه وابتسم ثم قال لجلسائه : « رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ، فانظروا عم تنجلى ! » .

وسار أرطبون العرب إلى أرطبون الروم ، وحاول كسر قوته فلم يوفق ، ولم يستطع أن يبنى خططه على ما تخبره به العيون عن جيش الأعداء ، ولم يشف نفسه ما يحصلون عليه من معلومات ، فعزم على أن يعتمد على نفسه ويدخل معسكر الأعداء ، كأنه رسول من رسل المسلمين ، فيعلم ما يريد علمه ويرتب عليه خطته .

ذهب عمرو إلى مقر الأرطبون ، واستأذن عليه مدعياً أنه رسول عمرو ابن العاص قائد جيش العرب ، فأذن له الأرطبون ، ودخل عمرو فحياه ، فصعّد الأرطبون فيه نظره وصوبه ليكشف رسول عمرو ، ويعلم ما يريد ثم قال :

---

(١) مكان بفلسطين من الرملة من كورة بيت جبرين .

ـ أنت رسول عمرو بن العاص ملك المسلمين ؟ !



ــ عمرو بن العاص قائد من قواد المسلمين يا سيدى وليس ملكاً من الملوك ، وليس للمسلمين ملك ، ولكن لهم خليفة لا يبرم أمراً إلا إذ استشار أصحابه . يجلس بينهم كأحدهم . يفترش الأرض ويكتفى بالخشن

وهل عمرو هذا داهية كما يقولون ؟

ــ عمرو يا سيدى سهم من سهام الله ، يعرف أين يضع قدمه وأن يوجهها . وما دخل فى شىء إلا خرج منه .

ــ لعلك تنظر إليه نظر الجندى المطيع إلى قائده ! ولكن ، متى تعلمتم الحرب؟! إنا عهدناكم أمة بدوية لا تعرف إلا مواقع الغيث ومواطن الكلأ ، فتى وصلتم إلى هذا الغرور الذى تريدون به أن تغلبوا كسرى وقيصر ؟ !

– ليس فينا يا سيدى إلا فارس أو محارب ، قد ربتنا صحراؤنا على احتمال المكاره ، وعلمتنا الطعان والضرب ، وأرشدتنا إلى مقاتل الأعداء ، وقد انتصرتم بسواعدنا قبل الإسلام ، وسيوفنا باليرموك شاهدة ناطقة .

– إنك ماهر فى سوق الحديث ، ذو قدرة فائقة على تصوير قوتكم بغير الحق ، ولكن كم يقود عمرو إلينا ؟ كم عدد جيشه ؟

– لا أدرى يا سيدى ، فما أنا إلا رسول عمرو ، جئت أبلغك رسالته وأدعوك بلسانه إلى الإسلام ، فإن أبيت فالتسليم ودفع الجزية ، وإن أبيت فالحرب .

– الحرب ؟ ! وهل تظنون أنكم ستغلبون الأرطبون ؟ !

– هل الأرطبون أعز على سيوف المسلمين من « هرقل » كبير الروم؟! إن السيوف التى أصابت أفئدة جيش هرقل ستصيب فؤاد من يقف أمام جيش عمرو ، إننا دعاة سلام وإسلام ، نجاهد من أجل الحق وإعلاء كلمة الله .

– وما أقوى الخطط التى تنتصرون بها ؟ لقد رأينا منكم فنوناً غير ما عهدنا ، وأى الوجوه تلبسونها ساعة المعمعة ؟ فقد حدثنا من قاتلوكم أنكم تلبسون وجوهاً غير وجوهكم ، وجلوداً غير جلودكم ، وتمسكون سيوفاً غير سيوفكم ، فكيف تصنعون ذلك ؟ !

– هى وجوه المسلمين ، غاضبة فى الحرب باسمة فى السلم ، أما السيوف والجلود فهى سيوف المسلمين وجلودهم ، كساها الإسلام رهبة وألبسها جلالا ، أما الخطط الجديدة فلا أدرى يا سيدى فيم يفكر عمرو ،

ولا أعرف إلا أنني رسوله إليك .

وسمع الأرطبون كلام هذا العربى ، دهشاً من ذكائه ولباقته ، لا يدرى أنه هو عمرو نفسه ، ثم صاح فى كبرياء :

ـ أبلغ قائدك أننا قد جمعنا له الجموع وأعددنا له العدة ، وسوف لا يجد عندنا إلا ضرباً وطعناً لم يذقه من قبل !

أبلغه أن قوة الروم العاتية قد اجتمعت فى جيش الأرطبون ، وأن فلسطين ستكون الفاصلة بيننا وبينه ، لا إسلام ولا جزية ، بل السيف والرمح ، أسمعت ؟ !

ولم يبد على عمرو ما ينبئ بحقيقته ، إلا أن الأرطبون قد أخذ بحديثه وذكائه ، وجعل يتفرس هذا العربى الذى جاء رسول قائد العرب ، ويستجمع كل ما يعرفه من صفات عمرو ، حتى رجح لديه أن هذا الرسول قد يكون عمراً نفسه ، وإلا فهو بطل من أبطاله لا ينبغى أن يفلت من يده ، فأوحى إلى بواب الحصن أن يقتله إذا مر به خارجاً ، ثم أظهر البشاشة لهذا الرسول ، وأمر له بجائزة كبيرة فانطلق يريد الباب .

ـ قف يا عمرو ، أين تذهب ؟ !

كانت هذه العبارة همساً خفيفاً من عربى من الشام رأى عمراً يحمل الجائزة ويسرع بالخروج ، فوقف عمرو ، ودنا منه العربى فى حذر ثم همس فى صوت خفيض :

ـ قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج .

وكان العربى قد علم ما أضمره الأرطبون ، فانتظر حتى خرج عمرو ثم ألقى إليه هذه العبارة واثقاً من ذكائه ؛ وانطلق سريعاً وتوارى عن نظر عمرو ، وتركه يردد فى نفسه :

« أحسنت الدخول فأحسن الخروج ! » ولم يطل الوقوف بعمرو فرجع بجائزته سريعاً إلى الأرطبون ، واستأذن عليه فدهش لعودته وصاح قائلا :

— لماذا عدت أيها العربى ؟! ألك حاجة ؟! أنسيت بعضاً من رسالة قائلك ؟ !

— لم أنس يا سيدى ، ولكنى عدت لأكرر شكرى على هذه الجائزة العظيمة ، وأرجو أن يصلك شكر غيرى على نعمتك وجزيل كرمك .

— شكر غيرك ؟ ! إن الجائزة لك أنت وحدك !

— كيف أستطيع أن أختص بها ، ولى أبناء عم وإخوة عشرة على الأقل ؟! وقد نظرت فى هذه الجائزة فرأيت أنها لا تعمهم جميعاً ، فعدت إليك لأرجوك لهم ، فقد أحببت أن يعم معروفك .

— نأمر بعشرة أضعاف هذه الجائزة وتحملها إليهم .

— وحمد تلك الألسنة يا سيدى ؟ ! ألا تحب أن تسمع شكرها جميعاً ، إن لكل منهم لساناً مثل لسانى وجناناً مثل جنانى ، إذا كان قد سرك هذا اللسان وذلك الجنان ، وسوف تجد منهم أكثر مما رأيت منى .

— ترى أن تحضرهم إلىّ ؟ ! هنا ؟ !

— نعم يا سيدى ، لتسألهم ويجيبوا ، وتعطيهم ويشكروا ، ثم يعودوا بثناء يتردد بين العرب ، وأنت عليم بأثر هذا الثناء .

ـ حسناً أيها الرسول اللبق ! اذهب وأتنى بهم .

وذهب عمرو يبتدر الباب ، وقد بعث الأرطبون إلى البواب أن يتركه ، ورءوس عشرة من عظماء العرب وأذكيائهم تتراقص أمام عينيه ثم يخالها تطير على حد سيفه غنيمة عظيمة من جند عمرو ، معتقداً أن ذلك الرسول سيقبل بهم إلى حتفهم .

وفُتح الباب ، واخترقه عمرو فى جد واهتمام ، أقنع من شاهدوه أنه عازم على العودة بإخوته وأبناء عمه ، حتى بعد عن الحصن ، ثم التفت إليه ضاحكاً ، ورفع يديه شكراً لله على هذا الإلهام الذى يسعفه فى أحرج المواقف ، ورجع إلى أصحابه ونثر الجائزة بينهم ، ووجوههم تفيض عجباً وعمرو يقص عليهم ما كان ، وطار الخبر إلى المدينة حتى بلغ سمع الخليفة عمر ، فقال فى بسمة راضية « عمرو ، ولله عمرو ! » .

عرف القائد العربى بنفسه كل ما خفى عليه ، ورتب خطته ، وزحف بجنده إلى جيش الأرطبون فى أجنادين ، ودارت الحرب وأخذت سيوف المسلمين ترتفع ثم تنخفض ، ورءوس الرومان ترتفع ثم تنخفض ، حتى أحس الأرطبون وجنوده أن لا قبل لهم بعمرو وجيش عمرو ، ففروا فى ثمانين ألفاً ملتجئين إلى بيت المقدس فى العام الخامس عشر من الهجرة .

وتقدم عمرو للقضاء على الأرطبون وجند الأرطبون . وحاصر بيت المقدس أربعة أشهر ، لم تغرب شمس يوم منها دون أن تراق دماء

أو تطير رءوس ، حتى علم المحاصرون أن لا جدوى من الدفاع ، فطلبوا الصلح ، على أن يوقعه الخليفة بنفسه .

وكان عمر بن الخطاب قد أقبل إلى الشام حينما أبطأ الحصار وكتب إلى الأمراء الذين لا يجدون فى نواحيهم كبير قتال ، أن يقابلوه فى مكان بفلسطين يسمى « الجابية » ، فلما بلغه كتاب عمرو أسرع إليها ، ووافاه البطارقة خاضعين ، وكتب عقد الصلح على تسليم بيت المقدس وشهد عليه عمرو بن العاص [١] .

واندفع المسلمون مكبرين مهللين ، ذاكرين ليلة مجيدة دخل فيها هذا المكان أول فاتح لبيت المقدس من المسلمين ، وهو رسولهم الأمين ليلة الإسراء [٢] ، وأخذ عمرو يبحث عن الأرطبون حتى كبر ظنه أنه قد قتل مع من نالتهم سيوف المسلمين ، لكنه عرف أنه فر إلى مصر مقسماً أن يدبر فيها جيشاً عرمرماً يعود به ، فيبدد المسلمين ، ويرجع فلسطين ثم الشام ، فأطرق عمرو يفكر :

---

(١) وجاء فى هذا العقد : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل إيلياء ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم . . . » .

(٢) الليلة التى أسرى فيها بالرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ، وكانت على الأرجح فى العام الثالث قبل الهجرة ، وقال تعالى فيها : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير » .

ليست مصر بعيدة عن الشام! لا تفصلهما حدود ولا تحدهما فواصل ! كل منهما متمم للآخر ، إن الشام لا تأمن إلا بمصر . ولا تأمن مصر إلا بالشام ، وإذا ترك الأرطبون ولم تدركه قوتنا وهو مذعور ، فقد يعود بجيش ضخم يكلفنا أشد العناء ! لا بد من فتح مصر لتأمن الشام ! ولكن أيمكن انتزاع موافقة عمر على السير إلى مصر ؟ ! وكيف أقنعه بذلك الفتح الكبير ؟ ! وكم أطلب لذلك من الجند ؟ إذا طلبت جيشاً كبيراً فسيرفض عمر حتى لا تشتت قوى المسلمين ، وإذا طلبت جيشاً صغيراً فسيرفض كذلك خوفاً على المسلمين ، ثم انتفض عمرو يردد فى حزم :

ـ لكن الأمر جد ، ولا بد من تعقب الأرطبون وتحطيم قوة الروم الرابضة فى مصر ، سوف أقنع عمر ، سوف أسير إلى مصر مهما تكن العوائق !

درة التاج

أقبل عمرو على الخليفة متطلق الوجه يغمره سرور دافق . وكان عمر فى مثل هذا السرور لفتح الشام وانتشار نور الإسلام ، وبادر عمراً قائلا :

ـ هدأت الشام واطمأن بها الإسلام يا عمرو ؟ !

ـ لكن رأس الحية لا يزال باقياً يا أمير المؤمنين .

ـــ ومن يكون رأس الحية يا عمرو ؟! أتتخوف على الشام بعد أن ودعها هرقل الوداع الأخير ؟ !

ـــ رأس الحية بمصر يا أمير المؤمنين ، لقد فر الأرطبون إليها ، وعلمت أنه يجند بها الجنود ليعود بهم إلى الشام ، مقسما على طرد العرب وإزالة الإسلام .

ـــ وهل تظن ذلك خطراً ، ما دمنا يقظين لهذا الجانب يا عمرو ؟ ! قوّ الحامية وزد اليقظة .

ـــ لا حدود بين الشام ومصر يا أمير المؤمنين ، ولا يستطاع تأمين الشام إلا بمصر ، ولا تأمين مصر إلا بالشام ، كل منهما مفتاح للأخرى ، وما دام بمصر جيش للرومان فهى خطر مخوف .

وصمت الخليفة ، ودارت فى رأسه أفكار كثيرة ثم التفت إلى عمرو وقال باسماً :

ـــ أتريد فتح مصر يا عمرو ؟ إنى أعلم حبك لها منذ دخلتها فى الجاهلية ، وأعلم أنك لا تزال مفتوناً بها فهل تعرف أحوالها اليوم ؟

ـــ أعرفها يا أمير المؤمنين ، وأعرف أنها ترحب بالعرب وتتمنى أن ينقذها الإسلام الرحيم من مخالب الروم ، أتعرف يا أمير المؤمنين كم يدفع أهل مصر من الضرائب للرومان ؟ شىء يذيب القلوب ، ويبعث ذوى النجدة على تخليص مصر من ذلك البلاء ؛ على الرءوس ضريبة يا أمير المؤمنين ، وعلى الصناعات ضريبة ، وعلى الماشية ضريبة ، وعلى من يسير فى الطريق ضريبة فى الذهاب وضريبة فى الإياب ، لا يعفى منها النساء

ولاالأطفال ، حتى الموتى الذين يسيرون إلى قبورهم ، تجبى عنهم الضرائب يا أمير المؤمنين ! ولم يبق إلا النفس المتردد فى الصدور ، لم يتيقظوا له وإلا فرضوا عليه ضريبة وما أفظعها لو تنبهوا لها يا أمير المؤمنين !

أليس على الإسلام المنقذ أن يدرك هؤلاء ؟!

وصمت عمرو وصمت عمر ، ثم هز الخليفة رأسه قائلا :

ـ هكذا يا عمرو ؟! كل هذا الظلم ؟ !

ـ نعم يا أمير المؤمنين وأقسى من ذلك ، فعلى المصريين إيواء الموظفين الرومان الذين يمرون بمدنهم وقراهم من المدنيين أو العسكريين ، وأن يلبوا رغباتهم ، ويقدموا إليهم كل ما يحتاجون ، وما أثقل ما يحتاجون يا أمير المؤمنين ! غذاء وراحة وانتقال ، وكثير غير ذلك إن لم ينالوه طوعاً نالوه كرها .

ـ والأرطبون وقوات الرومان فى مصر يا عمرو ؟ !

ـ إن الفزع قد حطم قلوبهم يا أمير المؤمنين ، ولن يثبتوا بعدما رأوا فى الشام من الموت الذى يتخطف الأرواح والأجسام .

وصمت عمرو ، وسكت عمر ، ولكنه بعد قليل نظر إلى عمرو وابتسم قائلا :

ـ إن مصر تبرق أمام عينيك يا عمرو ، وأظن روعتها تغطى كل شىء فى حزمك وبعد نظرك !

ـ بل تدفعنى بشارة الرسول يا أمير المؤمنين ، لقد أخذ جنود الشام يرددون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستفتحون مصر ،

فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمّة ورحماً » ، ألا تذكر ذلك يا أمير المؤمنين ؟

ــ أذكره يا عمرو ، ولكن الأشياء مرهونة بأوقاتها ، وعندما يحين الوقت سيحقق الله بشارة رسوله وينجز وعده .

ــ أرى الوقت قد حان يا أمير المؤمنين ، وقد أوشك الإسلام أن يضيء مصر ويقشع ظلام الروم ، وإن كنت أعرف أنها درة تاجهم ، وأنهم سيقاتلون عليها أشد قتال ، لكن المصريين ليسوا معهم ، ولا يستطيع أحد أن يعيش فى وسط يبغضه ويتمنى زواله .

بل أؤكد يا أمير المؤمنين أنهم سيكونون معنا حرباً على الرومان ، وعندما ندخل مصر ستتخذ منها جيشاً قويًّا فقد بشر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا بها جيشاً كثيفاً فذلك خير أجناد الأرض » ألا تذكر ذلك يا أمير المؤمنين ؟

ــ أذكره يا عمرو ، ولكنى أرى التمهل حتى يقوى الجند ، ويستريحوا من المعارك الطاحنة التى خاضوها فى الشام ، تمهل يا عمرو ، تمهل .

ــ إذا صبرنا يا أمير المؤمنين أفاق الرومان من الضربات القاصمة ، فالحزم أن نعاجلهم قبل استقرارهم ، لقد علمت الكثير وسمعت الكثير ، وكونت رأياً بعد دراسة وبحث ، وتأكدت أن مصر ستدخل الإسلام بأهون سعى وأيسر جهد .

ــ وحصونهم يا عمرو ؟ !

– مهملة معطلة يا أمير المؤمنين ، يقيم فيها الجنود إقامة اليائس الخائف
– كم تطلب لذلك الفتح من الجند يا عمرو ؟
– أربعة آلاف يا أمير المؤمنين .
– أربعة آلاف ؟ ! أتظن هذا العدد كافياً لفتح مصر يا عمرو ؟!
– سيكفي بإذن الله يا أمير المؤمنين ، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والمسلمون يقاتلون بقلوبهم قبل سيوفهم ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا .

ونظر عمر إلى عمرو فرآه لا يزال متطلق الوجه ثقة وأملا ؛ فقال في هدوء :

– على بركة الله ، اذهب يا عمرو ، وسوف أستخير الله ثم أرسل خلفك رسالة ، فإذا وصلتك قبل دخول مصر فارجع ، وإن وصلت بعد دخولك فامض على بركة الله ، وانشر في مصر نور الله ، واجعل درة تاج الرومان درة في عقد الإسلام .

على بركة الله

أشرق الصباح على أربعة آلاف من جند المسلمين يجدّون السير إلى مصر ، لا يجدون جديداً عليهم . فالصحراء كصحرائهم التي درجوا في رمالها وتحت سمائها ، والطريق مثل الطريق التي عهدوها ، غير أنها مطروقة

يدل ما فيها على أنها طريق القوافل المترددة بين الشام ومصر ، ولَم يجدوا من يردهم من الروم ولا غير الروم ، وكانت جيوش المسلمين تتم فتح بلاد الفرس وبلاد الشام ، لا تجد إلا مقاومة ضئيلة ، بعد ما كسرت القوات الرئيسية ، واستولت على البلاد القوية .

كان الخليفة عمر قد جمع أصحابه ليستشيرهم فى هذا الفتح الذى أقدم عليه عمرو بجيشه الصغير ، فرجاه بعضهم أن يتدارك الأمر ، ويعيد عمراً قبل أن يذهب بجيشه فريسة للروم المستعدين فى مصر ، وصور بعضهم عمراً فى صورة الجرىء المغامر الذى يقذف بنفسه فى أحضان المخاطر ، الطموح المزدو الراغب فى سعة إدارته ، وألح على عمر أن يستدعيه قبل أن يلج بالمسلمين مزلقاً صعباً تسوء مغبته .

وما زال هؤلاء وهؤلاء بعمر ، حتى كتب إلى عمرو يأمره بالعودة ، كما اتفقا ، وكان عمرو خائفاً أن يدركه كتاب الخليفة قبل دخول مصر ، فانطلق بالجيش يطوى الصحراء ، ويمد عينيه ويرهف سمعه لطارق جديد ، حتى ارتفع النداء ذات صباح يعلن وصول رسول الخليفة بكتاب إلى عمرو ، ولم يكن بينهم وبين مصر إلا اليسير .

كانت فراسة عمرو قد كشفت له ما سيكون عليه خطاب عمر ، فجد السير متشاغلا عن الرسول حتى بلغ مكاناً فى الطريق ، فوقف وألقى بصره حوله ومده أمامه ثم استدعى رسول الخليفة . ونادى بعض سكان هذا المكان وسألهم عن هذا الموضع ، وهل هو من مصر ؟ فأخبروه أنه الآن

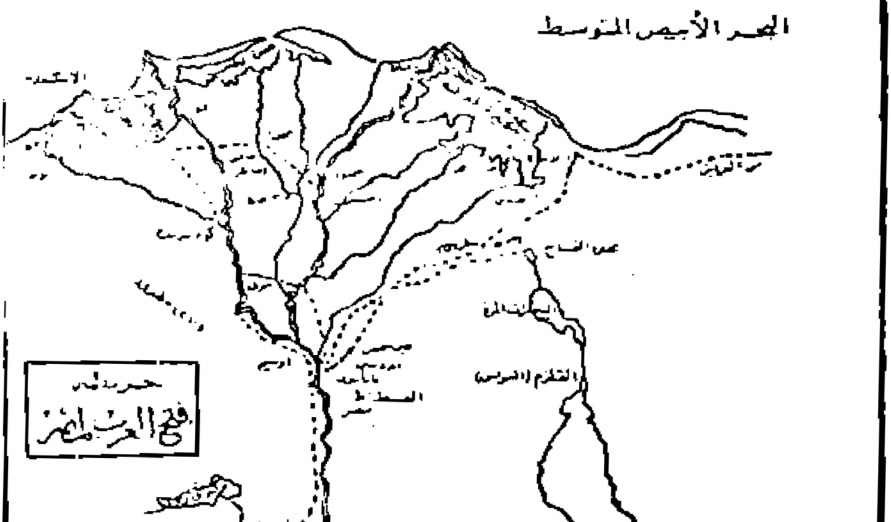
داخل مصر فالتفت عمرو إلى رسول الخليفة ثم وجه حديثه إلى سكان ذلك المكان قائلا :

— إذن نحن الآن داخل مصر ؟

— نعم يا سيدى داخل مصر ، داخل بلاد الروم .

واطمأن عمرو إلى أن رسول الخليفة قد سمع بأذنيه هذه الشهادة ، ثم مد يده وتناول رسالة عمر مبتسماً وقرأها ، ثم أعاد قراءتها على جيشه فنظر بعضهم إلى بعض وقرأ عمرو فى عيونهم الرفض ثم صاح :

— أعرفتم أن هذا المكان من مصر ؟



— عرفنا وعلمنا !

كانت أصواتهم ممتلئة بالحماسة والثقة ، تكاد تندفع وحدها فى الطريق لتسبق الجيش، فاشتد عزم عمرو ونظر إلى هذه الآلاف الأربعة ، فكبرت فى عينيه ، حتى خالها أربعين ألفاً ، ثم قال فى ابتسامة راضية :

— إن أمير المؤمنين عهد إلىّ أن أسير إلى مصر ، وأمرنى إذا لحقنى كتابه بالعودة قبل دخولى أن أعود ، وإن لحقنى وقد دخلت فلأمض على بركة الله .

فارتفعت الحناجر فى قوة :

— من مصر ، دخلنا مصر ، على بركة الله ، على بركة الله .

وغمر القائد جيشه المتوثب بنظرة الرضا ، ثم صاح فى عزم :

— على بركة الله ، فالنصر لكم ، وعون الله معكم ، وبشارة الرسول ستتحقق على أيديكم .

وانطلق الجيش يسابق الزمن مخترقاً رمال سيناء ، جاداً فى الوصول إلى هدفه ، حتى لاح من بعيد حصون وقلاع ، فأعدت العدة ، وأخرجت السيوف من أغمادها ، وتنادى الجيش بهجمة تزيل تلك الحصون ، واشتدت سرعة الجيش فلاحت هذه القلاع ، كأنها هى التى تجد السير لترتمى بين ظبات السيوف يائسة مستسلمة ، وكانت هذه هى حصون العريش[1] التى لم تلبث أن انهارت أمام المسلمين ، فدخلوها مكبرين ،

---

(١) كانت أول بلاد مصر من ناحية الشام على ساحل البحر الرومى .

بعد ما أدوا صلاة عيد الأضحى ، فى العاشر من ذى الحجة ، من العام الثامن عشر للهجرة[١] .

ولم يقف المسلمون حولها كثيراً ، فقد علموا أن الروم قد تجمعوا لهم فى مواطن أشد تحصيناً ، وأقوى على الدفاع ، فغادروا العريش وما حولها من حراج النخيل ، متجهين إلى الغرب على بعد من شاطئ البحر الأبيض ، يجتازون صحراء جرداء ، فى بعض أمكنة منها قرى ومواطن مياه ، وليس فيها ما يثير اهتمام الجيش ، فالصحراء مثل صحرائهم ، والنبات والأشواك المنتثرة فى وسط الرمال الصفراء هنا وهناك ، مثل تلك النباتات والأشواك التى عهدوها فى بلادهم ، وقطان هذه البقاع ، يكادون يكونون عرباً مثلهم ، لكن الدهشة التى ملكت قلوبهم أن تكون هذه مصر بلاد النيل ذات الخير الوفير .

وارتمت العيون فى الأفق فلاحت حصون أخرى ، ودبت الحماسة فى الجيش ، وانطلقت التكبيرات تهز الأرجاء ، واختلطت بالغبار المنعقد فوق الرءوس ، وأسرعت هذه الحصون تقترب كما اقتربت حصون العريش ، حتى انتهوا إليها ، فوجدوها قوية محكمة فيها حركة وحياة ، ولها ميناء على البحر الأبيض ، تستطيع أن تعتمد منه على السفن فتصمد طويلا .

ورأوا جدولا ينساب إليها بماء عذب متدفق ، ماؤه أحلى من كل ماء ذاقوه من قبل ، وأمر القائد فالتف الجيش حول هذا الموقع الذى يسمى

---

(١) ٦٣٩ ميلادية .

« الفرما »[١] وكانت حاميته قد دخلت الحصون وأغلقت أبوابها واستعدت لملاقاة جيش المسلمين .

وقف المسلمون فى يقظة ينتظرون أمر القائد ، وكانوا قد شربوا من ماء الجدول ، وأغرتهم حلاوته فنهلوا وشبعوا . لكنهم أحسوا بدبيب من القوة يدب فى أوصالهم ، وتلفت بعضهم إلى بعض يتساءلون :

— أشربنا مسكراً ونحن لا ندرى ؟ ! ما هذا الدبيب القوى الذى يدب فى أوصالنا ؟ !

ثم أسرعوا إلى عمرو يسألونه ، فابتسم قائلا :

— ماء النيل ! ماء النيل يبعث القوة ويثير الحماسة .

— ماء النيل يبعث هذه القوة كلها ؟ !

— إذا امتزج بالإيمان ، فأكثروا من شربه ، واستعدوا لدبيب أقوى حينما تشربون من النهر الكبير .

— أكبر من هذا ؟ !

— أكبر من هذا ، وما هذا إلا جدول صغير تسلل من النيل عبر الصحراء ، أما النهر فماء واسع متدافع شديد الروعة ، ستصلون إليه بالصبر واليقين ، وسيعينكم ما شربتم من هذا الجدول .

---

(١) كانت على ساحل بحر الروم فى الشرق ، تبعد عنه بقدر ميلين قرب بورسعيد الآن ، وكان لها ميناء عامر ، يصل إليها فرع من النيل يسمى الفرع الطينى لأن اسمها كان « الطينة » ، وكانت زمن الفراعنة حصن مصر من الشرق ، وتعرف الآن بتل الفرما .

ومضى شهر وقذائف الحصن تنتثر فى جوانبه ، والروم يخرجون فيذوقون سيوف المسلمين الملتهبة ، ثم يفرون إلى حصنهم ، حتى خارت قواهم ، ووجدوا ألا مفر من التسليم .

وأشرق ضوء الصباح الهادئ على أبواب الحصن ، وقد تفتحت مستسلمة ، فاندفع فيها جيش الإسلام يلفه التكبير والتهليل والحمد، وهرع المسلمون إلى الجدول يعبون منه ويمزجون ماءه بإيمانهم ، ثم استأنفوا المسير من الفرما ، تردد ألسنتهم آيات القرآن وبشارة الرسول ، وعمرو أمامهم ليثاً جسوراً ، يقوى العزائم ويبشر بالنصر القريب ، حتى بلغوا بلبيس[1] ، وكان الأرطبون قد استعد فيها لملاقاة المسلمين ، محتمياً بحصنها المنيع فالتفت المسلمون حوله ، وضيقوا عليه الخناق ، وأذاقوا من خرج منه طعم الموت ، حتى يئس المحاصرون ، وفتحوا الأبواب يطلبون الأمان .

شد المسلمون على مقابض سيوفهم ، وهبوا فى عاصفة من التكبير والتهليل إلى تلك الأبواب المفتحة ، وأمامهم عمرو مرفوع السيف باسم الثغر ، يعلن دخول « بلبيس » فى أحضان الإسلام ، ويبشر المسلمين بالفتح المبين ، فقد أصبحوا على مسيرة يوم واحد من رأس الدلتا ، حيث تنشب المعركة الفاصلة بين قوة الحق وعدة الباطل .

---

(١) بينها وبين الفسطاط (مصر القديمة اليوم) عشرة فراسخ ، على الطريق من مصر إلى الشام .

بين فكي الأسد

يوم واحد من رأس الدلتا ! يوم واحد من النيل ! النصر للحق والخذلان للباطل ! . . .

كانت هذه الهتافات تدوى فى وسط الصحراء ، تشهد الله على ما فى قلوب المؤمنين من الإخلاص لدينه ، والعمل لإعلاء كلمته ، تخرج من أفواه المسلمين قوية حارة ، فتلتقى بظبات السيوف المتوهجة فى أشعة الشمس فتزيد بريقاً ورونقاً ، حتى بلغوا مكاناً على مقربة من النيل فى حدود الصحراء يسمى « عين شمس » فاتخذه عمرو قاعدة له .

كان الروم يقلبون أكفهم عجباً من هذا الجيش وقائده ، وقد أجمعوا أمرهم على أن يضربوه الضربة القاصمة إذا تقدم إلى النيل ، وكانت كبرى حامياتهم فى حصن منيع على النيل يسمى حصن بابليون[1] ، فقرروا أن يقفوا لعمرو فى مكان حصين على النيل قبل بابليون يسمى « أم دنين » ، وهو مكان تحميه الجيوش من البر ، وتحرسه السفن من النيل .

رتب قائد الروم دفاعه ، ونظر إلى جيوشه فى البر وفى الماء وقهقه

---

(١) موضعه الفسطاط وكان هذا الموضع قبل الفتح فضاء ومزارع بين النيل والجبل الشرقى المعروف بجبل المقطم ، يقوم فيه حصن بابليون الذى يعرف بعضه بقصر الشمع ، كان به حامية الروم ، وينزل به الحاكم إذا أقبل من الإسكندرية التى كانت هى العاصمة فى ذلك الوقت فيقيم به ما يشاء ، ثم يعود ، وكان مطلا على النيل تصل السفن فى النيل إلى بابه الغربى الذى كان يعرف بباب الحديد .

قهقهة عالية ، ولوى عنقه فى كبرياء ثم صاح فى زهو :

ـ عمرو ! أين عمرو ؟ ! أيظن كل لقاء حرباً ؟! هنا سيدفن ! فى هذا الماء ستلقى جثث رجاله! سوف تسجل أم دنين ما لم تسجله أجنادين وبلبيس ! .

ثم علت قهقهته وردد مرة أخرى :

ـ عمرو ! وأين هذا العمرو ؟ !

وبعد أن اطمأن القائد العربى إلى قاعدته فى عين شمس ، استأنف مسيره حتى بلغ « أم دنين » ، ونظر إلى حصونها وقلاعها ، ثم خاطب نفسه :

ـ يا لله ! حصونها منيعة وأسوارها محكمة ! والسفن تحرس جانب النيل فكيف العمل ؟ !

ولم يطل الوقوف بعمرو . وتقدم إليه جيش الرومان ، وتحركت سيوف العرب ، وعرفت طريقها إلى قلوب أعدائها وهاماتهم ، حتى أحس الروم بحرارتها ، وتذكروا ما سمعوه عن معونة السماء لها ، فولوا الأدبار واحتموا بالحصن ، ثم عاودوا الكرة مرة بعد مرة ، فأحس عمرو بضرورة المدد ، فكتب إلى الخليفة يستمده ليتم الفتح .

انقضى اليوم إثر اليوم ، والشهر إثر الشهر وعمرو يصد هجمات الروم ، ويرقب الطريق ليرى طلائع المدد الذى بعث به الخليفة ، فلا يرى مدداً ولا من يبشر بمدد .

ونظر إلى قوة الروم الكبيرة وأعدادهم الكثيرة وجيشه القليل ،

ولكنه لم يهن ولم يضعف . واستمد من عزيمته مدداً . ومن روحه جيشاً عرمرما ، وآلى أن يقتحم حصن أم دنين ، ونفخ من روحه فى قلوب أصحابه وتقدم أمامهم ، فالتفت سيوف المسلمين برقاب الروم . وواصلت اقتلاع رءوسهم يوما وليلة حتى تركوا سفنهم وعدتهم ، وأسرعوا إلى آخر حصن من حصونهم تاركين أم دنين للمسلمين يدخلونها مكبرين مهللين ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، يستعدون لاقتحام الملاذ الأخير .

كان حصن « بابليون » متين البناء ، ذا أسوار شاهقة ، يحيط به خندق واسع يحف به النيل من الغرب ، قد وضع الرومان فيه أسلاكاً من الحديد كالشوك تنشب فى كل رجل أو حافر يقع عليها .

ونظر عمرو إلى ماء النيل فرآه مائلا إلى الحمرة ، ووجده يزيد كل يوم حمرة تشتد يوما بعد يوم ، فعلم أن مصر مقدمة على الفيضان ؛ وخاف أن يملأ الماء الخندق فيعوق اقتحام الحصن ، وأن يفيض فى الترع والخلجان فيحصرهم فى وسط مصر ، وتصبح قوة المسلمين مطوقة فى هذه البلاد الواسعة . وود لو هيئ له اقتحام هذا الحصن قبل بلوغ الفيضان أقصاه . وكان الروم قد دخلوا الحصن ومعهم أكابر القبط ورؤساؤهم ، والمقوقس عظيمهم ، فأحكم عمرو الحصار ، وشدد قبضته على أقوى معقل من معاقل الروم ، ثم أخذ يفكر فيما يصنع حتى ينحسر هذا الماء .

ولم يطل التفكير بعمرو ، فقد خيل إلى قائد الروم أن يباغت العرب ويقضى عليهم ، فجمع عشرين ألفاً من الجنود المدربين ، وأحكم الخطة

لتكون هذه الموقعة نهاية عمرو وحيل عمرو .

وتأكد الجنود أن درة التاج معلقة على هذه الموقعة ، فإما كسبوها ، وإما طارت من أيديهم ، وألقوا بعيداً عن مصر ونيلها إذا هيئ لهم البقاء ، واختار القائد أن يهاجم العرب فى قاعدتهم بعين شمس .

كانت صورة مصر البديعة وخيراتها العميمة تتراءى أمام جنود الرومان ، ثم يتخيلون أن العرب قد انتزعوها من أيديهم فتثور حماستهم ويشتد عزمهم ، وكانت هذه الصورة الجميلة تتراءى أمام المسلمين ويتخيلون أنهم ينتزعونها من أيدى الظالمين ، وأن ثواب الله سيغدق عليهم ، جزاء إنقاذها ونجدتها . فتشتد عزائمهم وتثور حماستهم كذلك .

وسار الرومان إلى الجيش العربى فى عين شمس ، والآمال تضحك فى قلوبهم ، موقنين بالنصر على هذه الفئة القليلة التى لن تقف لهذا الجيش الذى يسد الأفق ولو حرستها الشياطين .

كان عمرو قد علم ما بيته الروم ، ونظر إلى جيشه الصغير ، ثم أطرق يفكر فى خطة يقابل بها ذلك الجيش الضخم .

لا مدد يزيد العدد ، ولا سلاح يضمه إلى السلاح ، ولا شىء إلا عون الله ، والخطة الحكيمة التى تكفل لبضعة آلاف أن تهزم عشرين ألفاً .

وأسرعت الخطة تملأ فؤاد عمرو ، فدعا أصحابه ، وأسر بها إليهم ، ثم أسرعوا خفافاً إلى خيولهم ، وعلى شفاههم بسمات مشرقة تبشر بالنصر

للفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الباغية .

والتقى الجيشان فى نصف المسافة بين عين شمس وبابليون ، وألقى الروم بكل قوتهم فى وجه المسلمين ، فتقهقر المسلمون قليلا وتقدم الرومان قليلا ، وقهقه القائد كما يقهقه الوحش الذى وثق من الفريسة ، واشتد به الزهو . وقوّى تقهقر المسلمين قلوب الرومان فزاد انحدارهم على جيش العرب يزأرون ويستعجلون النصر .

لكن صراخاً عالياً واستغاثة حزينة أخذت تنبعث من ميمنة الروم ، والتفت القائد إلى هذا الجناح فوجده يتحطم ووجد العرب قد انقضوا عليه من الشرق كأن الجبل قد انشق عنهم فانحدروا صاعقة ماحقة ، نقضت نظام الجيش وأشاعت فيه اضطراباً شديداً ، وكر عمرو عليهم من أمامهم ، فلم يجدوا إلا الغرب يلوذون به فراراً نحو أم دنين .

لكن الأرض قد انشقت عن قوة أخرى من المسلمين أطبقت عليهم من الغرب ، وأصبحوا بين ماضغى الأسد فريسة سائغة تطحنها أنيابه ، ويلوكها لسانه كما يشاء ، ولم يفلت إلا قليل كانوا فى المؤخرة ، فألقوا بأنفسهم فى النيل سابحين لا يدرون أين يذهبون ، ومُد لبعضهم فى الأجل فاستطاع أن يفر إلى حصن بابليون ، ويغلق عليه الأبواب ويتحسس مغاليقها ، والجزع يدب من قلبه إلى قلوب من بالحصن ، فيضاعفون إحكام الأبواب حتى لا تتخطفهم تلك الشياطين .

كان عمرو قد بنى خطته على أن يقابل الروم ببعض جيشه ، ويضع

كميناً قوياً فى الجبل من الشرق ، وكميناً آخر عند أم دنين من الغرب حتى يندفع الروم ، فتطبق عليهم كماشته القوية ، وسيق الروم إلى فخه ، وأعان الله الفئة القليلة فهزمت الفئة الكثيرة بإذنه .

وتفقد عمرو جيشه فلم يجده قد نقص إلا القليل ، ونظر إلى ما سيق إليه غنيمة من السلاح والعدة ثم رفع يديه إلى السماء ، وتعالت أصوات المسلمين بحمد الله ورجائه أن يعينهم على اقتحام الحصن المنيع ، حتى يطهروا مصر من الروم وأدران الروم ، ثم استأنفوا المسير إلى حصن بابليون .

المفاوضة

التف المسلمون مرة أخرى حول الحصن المنيع ، وكان به المقوقس عظيم القبط مع الروم ، وانقضى شهر بعد شهر ، وجاء المدد يضيف إلى جيش عمرو أربعة آلاف من صناديد المسلمين . فيهم أربعة كل منهم بألف .

ورأى المقوقس ما سينتهى إليه ذلك الحصار بعد هزائم الروم ، فخرج من باب الحصن الغربى وأقام بالجزيرة مع نفر من المصريين ، وعزم على أن ينتهى مع المسلمين إلى شىء قبل فوات الفرصة ، وأرسل رسله بكتاب إلى عمرو .

ما هذا ؟ وماذا يضير لو أقبل الروم بكل ما يملكون ؟ ! وماذا يهمنا من النيل وفيضانه ؟ ! أيجعلنا ذلك الفيضان أسرى فى يده كما يقول ؟ ! أيهددنا المقوقس ؟ ! ألم يعلم إلى اليوم سيوف هذه الفئة القليلة ؟ ! إنه لم يقف لنا حتى تتحدث إليه بما تحدثت لغيره !

ولم يجب عمرو على الرسالة ، ولم يأذن للرسل بالعودة ، فظلوا يومين بين العرب ، ثم دعاهم وسلمهم رده وأذن لهم ، وكان المقوقس قلقاً لإبطائهم ، قد حدثته نفسه بأن عمراً قتلهم ، رداً على تهديده وحار فيما يصنع إن كان عمرو قد فعل ذلك ، لكن الرسل قد عادت إليه عزيزة كريمة وقدمت إليه رد عمرو ففضه وتلاه مرة بعد مرة وأخذ يهمس بما فيه :

ــ ثلاث خصال تختارون إحداها : الدخول فى الإسلام ، فتكونون إخواناً للمسلمين لكم ما لهم وعليكم ما عليهم ، وإلا فالجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وعلى المسلمين حمايتكم والذود عنكم ، وتركِكم أحراراً فى أموالكم وأولادكم وأرضكم وأعمالكم ، وإلا فالحرب والجهاد حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

ثم التفت المقوقس إلى رسله وسألهم :

ــ كيف رأيتم هؤلاء المسلمين ؟

ــ رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ، جلوسهم على التراب ، وأكلهم على

ركبهم ، أميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد .

ـ غريب شأن هؤلاء القوم ! لو استقبل هؤلاء الجبال لأزالوها ' لابد من صلحهم وهم محصورون بالفيضان ، وإلا فلن يجيبوا بعده ، ارجعوا إلى عمرو ولينتدب من يفاوضنا ، فربما وصلنا إلى حل .

ودخل على المقوقس جماعة من المسلمين الذين انتدبهم عمرو ليفاوضوه كما أراد ، يتقدمهم رجل أسود شديد السواد ، طويل فارع الطول . أقدامهم ثابتة ، وقاماتهم مستقيمة ، وعيونهم ممتلئة بالحذر ، فارتفع صوت المقوقس فى اضطراب :

ـ نحوا عنى هذا الأسود الطويل ، وقدموا غيره .

ـ ولكنه أميرنا والمقدم علينا !

ـ أما وجدتم غير هذا ليكون أميراً عليكم ؟ !

ـ هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا ، ونحن جميعا نرجع إلى رأيه !

ـ لن أستطيع الحديث معه ، فاختاروا غيره !

وارتفعت أصوات المسلمين حتى كادت تخلع قلب المقوقس :

ـ لكن الأمير عمراً هو الذى اختاره ، وجعل له الأمر دوننا ، وأمرنا ألا نخالفه !

ـ وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وكان ينبغى أن

يكون دونكم ؟ ! إنه يخيفني ! أتصغيراً لشأني صنع عمرو ذلك ؟ !

— الإسلام لا يفرق بين الأسود والأبيض أيها المقوقس ، كل الناس أمام الإسلام سواء ، لا فضل إلا بالتقوى ، فإما قبلت أن تحدثه ، وإما عدنا من حيث أتينا !

ولم يجد المقوقس بدًّا من الحديث إلى عبادة بن الصامت ، وأشار إليه ليبدأ ، فابتسم عبادة ابتسامة خلعت قلب المقوقس وأصحابه ثم قال ساخراً :

— أتخاف سوادي أيها المقوقس ؟ ! فماذا تصنع إذا التقيت بجيش المسلمين وفيهم ألف في مثل سوادي وأشد ؟ ! بل هم في شباب وفتوة ، أما أنا فقد فارقت الشباب !

اسمع أيها المقوقس ، إننا لم نقصد مصر ولا غيرها إلا لرضوان الله ونشر دينه ، ولا حاجة لنا بالدنيا ونعيمها الزائل وإن كان الله قد أحل لنا ما غنمنا ، لا يبالي أحدنا أن تكون له قناطير من ذهب أم كان لا يملك إلا درهما ، لأن غايته من الدنيا أكلة يسد بها جوعته ، وشملة يلتحفها ، وإن كان له قنطار من الذهب أنفقه في سبيل الله .

وسمع المقوقس حديث عبادة ، ثم زفر زفرة حارة ، وتكلف ابتسامة باهتة ثم قال :

— إننا نعرف تقواكم وانصرافكم عن الدنيا ، وأن صلاحكم قد أعانكم على ما بلغتم ، لكنكم لا تعلمون ما يخبئ لكم القدر في بلادنا !

— خيراً وبركة إن شاء الله ! اطّلعت الغيب أيها المقوقس ، وعرفت ما يأتى به القدر ؟ !

— بل أخاف عليكم شرًّا أعلمه ، ولا أريد لأمثالكم من الصالحين أن يقعوا فريسة سهلة فى أيدى الروم !

— الروم ؟ ! ومن الذين هزمناهم فى كل موقعة حتّى اليوم ؟ ! أفى دينك أن الله يعين الظالمين ويهزم الصالحين ؟ !

— ولكنهم أعدوا لكم ما لا يحصى من الصناديد الذين لا يبالون بالموت ، إنى خائف عليكم وأنتم فى قلة عددكم أن تقعوا فى يد من لا يرحمون .

— خائف علينا من الروم ، أم خائف على الروم منا ؟ !

— خائف أن تلتقى بكم تلك الجحافل فتمحوكم فى ساعة من نهار ، ولو قدر لكم الصبر فإن مئونتكم ستنفذ ، لأنى أعلم ما أنتم فيه من ضيق وشدة ، ولدىّ حل يرضيكم . الصلح يا عبادة !

— على الأولى أم على الثانية ؟

— لا على واحدة منهما .

— إذن فلا نتحدث ، فليس لدينا إلا واحدة منهما أو الثالثة ، أعرفتها جميعاً ؟ الإسلام ، أو الجزية ، أو الحرب !

— ولكن واحدة أخرى خير من هذه الثلاثة .

— لا شىء خير من هذه الثلاثة ، فكر حتّى نعود إلى عمرو .

ـ واحدة ترضيكم ، وإنى واثق أنها ستسرك وتسر عمراً !

وهم عبادة بالعودة ، فأخذ المقوقس يرجوه أن يستمع له حتى يعرف هذه الواحدة ، فلعلها تكون الشافية ، فوقف عبادة وقال والغضب يملأ وجهه :

ـ تحدث ، وإن كنت لا أقبل إلا واحدة من الثلاثة .

ـ نتصالح يا عبادة ، نتصالح على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين .

ـ ثم ، أيها المقوقس ؟ !

ـ ثم نفرض لأميركم مائة دينار !

ـ ثم ؟ !

ـ ثم نفرض لخليفتكم ألف دينار !

ـ ثم ؟ !

ـ ثم تقبضون هذا المال كله مرة واحدة ، وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم من الروم ما لا قوة لكم به ، فتخسروا المال وتخسروا الأنفس !

وصمت عبادة برهة ثم صاح صيحة عدا لها قلب المقوقس فى صدره وهدر قائلا :

ـ أتخدعنا أيها الرجل أم تخدع نفسك ؟ ! لقد نسيت ! ألم أحدثك عن المسلمين وزهدهم فى الدنيا ؟ ! ألا تعلم أن الشهادة أول مطلب لنا

من هذه الحياة ؟ ! أين هذه الجموع التى تخوفنا بها ؟ ! ليتها تكون كما زعمت فنعجّل إلى الله ، وما من رجل فينا إلا وهو يدعو ربه صباحه ومساءه أن يرزقه الشهادة ، وألا يرده إلى أرضه ولا إلى بلده ولا إلى أهله وولده ، لسنا فى ضيق أيها المقوقس ، وإن ما نحن فيه لأوسع السعة ، فلا تخدع نفسك ، فليس أمامك إلا واحدة من الثلاث ، فانظر أيها أصلح لك ، ولا تركب الشطط ، فالقلوب العامرة بالإيمان لا تنخدع .

الفتح المبين

استدار عبادة بن الصامت ، واستدار أصحابه خلفه ، وتركوا المقوقس ومن معه فى ذهول ، ولم يكن عمرو فى حاجة لأن يقص عليه عبادة ما دار بينه وبين المقوقس ، فقد أدرك ما أراده ، وأدرك ما سينتهى إليه أمره .

أما المقوقس فتيقظ من ذهوله وجعل ينصح بصلح المسلمين على الجزية ، إذ لا طاقة لهم بصبرهم وجهادهم ، ثم خنقته العبرة ، فأطبق جفنيه وأمسك قليلا ثم عاد يذكر أصحابه بالرومان وعسف الرومان ، ويعيد عليهم تلك الصور القاتمة لأيامهم السوداء ، تلك الأيام البائسة التى سُلبت فيها الأقوات ، وأريقت الدماء ومزق الأبرياء .

فحركت كلماته أوتار القلوب المجروحة ، وبدت أمام أعينهم صور القتلى والجرحى والحرق ، وصور الأعراض التى فتك بها أولئك

الظالمون ، فوافقوا على الصلح ، وأسرع المقوقس إلى عمرو وعقد معه صلحاً عنه وعن المصريين .

أخذت الرومان العزة بالإثم فثاروا على ما أبرمه المقوقس ، ورفضوا الإذعان ، وتنادوا بالمقاومة والثبات حتى يأتى المدد فيلقى بعمرو وجيشه إلى وادى الفناء ، وطال الزمن وتبع الشهر الشهر ، والنيل يكف المسلمين عن الحصن ، وأمل الحامية يدفعها إلى المناوشة مع ما تعانيه من جوع فاتك ، ومرض حاصد ، حتى انقضت سبعة أشهر ، وانحسر ماء النيل وجف الخندق ودار المسلمون يبحثون عن المنفذ إلى قلوب الرومان .

وجلس عمرو وأصحابه يقلبون الرأى ، ويمدون أعينهم إلى الحصن ثم يعيدونها يائسة من اقتحامه ، ويستعرضون ما غنموه من أدوات الحصار ، فيجدونها عاجزة عن أن تنال منه ، وما زالوا يقلبون الأفكار حتى برق الأمل فى عين القائد وصاح بهم :

ــ لا فائدة من هذه العُدد ، لابد أن تتقدم القلوب لتفسح الطريق ، لابد أن يتطوع بعضنا ويهب نفسه لله .

وارتفعت جميع الأصوات فى حماسة دافقة :

ــ كلنا قد وهبنا أنفسنا لله .

لكن صوتاً منها أراد أن يسبق إلى الجنة ، فهب صاحبه الزبير بن العوام ، يرجو القوم أن يدعوا له هذا الاستشهاد لأنه فى شوق إلى لقاء الله ، وإن كان الأمل يملأ فؤاده بأن الله سيفتح الحصن على يديه .

ووضعت الخطة على أن يصعد هذا الفدائى الجسور فى سلم إلى رأس الحصن حتى يبلغه فيكبر ، فإذا سمعه المسلمون كبروا تكبيرة واحدة تهز الأرجاء وتزلزل أفئدة الحامية .

وصعد الفدائى وبلغ رأس الحصن وكبر ، فعلت تكبيرات المسلمين وظنت الحامية أنها صادرة من جوف الحصن وأن المسلمين قد اقتحموه ففرت إلى مخابئها تاركة الأبواب .

واستبق المسلمون السلم وانضموا إلى الزبير ، ثم هبطوا إلى الأبواب التى غادرها حراسها الخائفون وفتحوها ، فانساب المسلمون إلى داخل الحصن يبحثون عن رءوس الروم ، ولم يجد قائد الروم أمام هذا الهول الذى هبط عليه ، إلا أن يمد يده إلى عمرو ليرد الموت عمن بقى من جيشه ، فانبعث صوت قائد المسلمين يأمر بالكف ، مردداً قول الله تعالى : «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله» ويأمر قائد الروم أن يفرغ من الرحيل عن الحصن فى ثلاثة أيام .

وفرغ الروم فى يومين ولم يتركوا الحصن ، لأنهم أعدوا اليوم الثالث ليقطعوا فيه أيدى الأقباط الذين كانوا معهم فى الحصن ويبتروا أرجلهم ، ويشوهوا وجوههم حتى يتركوهم فى حالة لا يشمتون فيها بأعدائهم الروم ، الذين أذاقوهم العذاب مئات السنين ، لكن عمراً تقدم ليكف الأيدى الظالمة ويدفعها خارج الحصن ، ثم جعل فيه حامية ، وضم إليها السفن عند الباب الغربى المشرف على النيل حينذاك ، ثم استعد ليتم الفتح بالاستيلاء على عاصمة البلاد الواقعة على بحر الروم فى شمال مصر .

الجلاء

ــ ليس هنا أحد يا عمرو ! ليس هنا إلا يمامة تحتضن بيضها !

ــ هذه هى جارى الذى لجأ إلى فسطاطى ، فاتركوها آمنة حتى نعود من الإسكندرية !

وقوضت الخيام إلا خيمة القائد التى تركها لجاره ، وسار الجيش يشق شمال مصر إلى العاصمة المحصنة من البر والبحر ، ولم يستطع حصن من الحصون فى الطريق أن يثبت له ، ولم يستطع جيش الرومان أن يقف للعرب إلا ريثما يدبر للفرار ، حتى لاحت أسوار الإسكندرية بعد اثنين وعشرين يوما ، فعسكر العرب بعيداً عن مرمى قذائف الحصن ، ووقف القائد يقيس الأبعاد ويدبر الخطة ، ووقف قائد الروم بين جنده يحمسهم قائلا :

« إنها المعركة الأخيرة أيها الرومان ، فاثبتوا وعلموا عمراً ذلك الدرس الذى لم يستطع غيركم أن يعلمه إياه » .

حركت كلمات قائد الرومان قلوب حاميته ففتحوا الأبواب والتحموا بالمسلمين ، لكنهم أحسوا بعد قليل برءوسهم تطير ، وأفئدتهم تنشق ، فنكصوا على أعقابهم ، وأغلقوا عليهم أبواب الحصن ، حتى إذا ذهب

عنهم الروع واطمأنوا خلف الأسوار ، خيل إليهم أنهم قادرون على أخذ العرب ، فأقدموا ليذوقوا البلاء ثم يولوا الأدبار .

ومضى أربعة أشهر والمسلمون والروم فى شد وجذب ، والحصن يقف بين سيوف المسلمين ورقاب الروم إذا جد الجد ، فاستبطأ عمرو هذه المدة ، وعزم على اقتحام الحصن ، ودبر مع أصحابه خطة الهجوم .

اندفعت أفواج من المسلمين ذات صباح إلى ذلك الحصن ، تحت وابل من القذائف الثقيلة ، واندفع آخرون فى البحر ، سابحين بين السفن الرابضة حول المدينة ، وأطبقوا على الروم من البر والبحر ، وأخذت رحى المسلمين تعصر قلوب هذه الحامية الباقية فى أرض مصر ، فخارت قواها ، وأسرع قائدها إلى عمرو يستغيث صائحاً :

— سنرحل يا عمرو ! أوقف القتل وافرض ما تشاء !

فأوقف عمرو سيوف المسلمين وهى تقطر من دماء الرومان ، ورضى أن يمنحهم أحد عشر شهراً ، يقطعون فيها آخر خيط يربطهم بمصر ، ويمزقون كل خاطر يحدثهم بالعودة إليها [1] .

وتحركت سفن الرومان بعد قليل تجلو بهم سفينة بعد سفينة ، حتى نشرت الأخيرة أشرعتها ، ثم توقفت قليلا ، ونظر من فيها إلى مئات

---

(١) اتفق الطرفان فى أواخر عام ٦٤١ م . ٢١ هـ على « أن تخرج حامية الإسكندرية الرومانية بمتاعها وأموالها ، خلال أحد عشر شهراً ، وأن تتاح للمسيحيين عبادتهم وتصان معابدهم وألا يتدخل أحد فى دينهم . . . » .

السنين التى طالما حملت فيها سفن الرومان خيرات مصر ، لكنها أحست بعيون العرب تنظر إليها فى قوة ، فاعتدلت ثم توارت عن الأنظار .

وجلس الفاتح العربى على شاطئ البحر الأبيض مع صاحبه ، ومد نظره فى الأمواج السابحة بيد القدرة ، يلاحق بعضها بعضاً ، ويرتطم بعضها ببعض ، فتعلو وتهبط ، وسبح فى تفكير عميق ثم انتبه هامساً :

ـ حطمها الرومان ويصلحها العرب ! رسالة لا بد أن يقوم بها الإسلام ، ولكن بعد أن يتم الجلاء ؟ !

ـ أبعد ما ابتلع البحر جيش الرومان جلاء يا عمرو ؟ !

ـ كنت أتبع ماء البحر إلى الغرب يا عدنان .

ـ حتى البحر المحيط (١) ياعمرو ؟ !

ـ ليت يا عدنان ! لا بد من إجلاء الروم عن حدود مصر ، حتى تأمن الغرب كما أمنت الشرق ، ثم داخل مصر يا عدنان ! ألا تتوقع أن يكون فى البلاد جيوب للروم ؟ !

إن الغاصبين يشكلون الخائنين من أبناء البلاد كما يشتهون ، ويمكنونهم من رءوس قومهم ليظلموا الشعوب بأيديهم ، أتظن هؤلاء الذين كانوا يحملون ظلم الرومان إلى قومهم ، سينقادون إلينا بسهولة ؟ !

---

(١) المحيط الأطلسى .

إن أمامنا جهاداً في الداخل وجهاداً في الخارج ، قبل جهاد العمران يا عدنان !

وأصبحت جيوش المسلمين سابحة في جوانب مصر ، وأصبح عمرو بجيش منها يخترق الصحراء حتى بلغ برقة [1] على حدود مصر من الغرب فدانت له ، ثم استأنف السير حتى نزل طرابلس [2] في الغرب .

وشهد العام الثانى والعشرون للهجرة جيوش المسلمين ، ملتفة حول حصون طرابلس شهراً كاملا حتى فتحتها ، كما فتحت غيرها من الحصون المنيعة ، ثم عاد عمرو إلى مصر ليبدأ جهاد العمران ، ويبعث الحياة في مصر التى تركها الرومان شبحاً محطماً يستحق الرثاء .

جهاد العمران

تفتحت عيون المصريين على جمال بلادهم ، بعدما غشى عليها ظلم الرومان ، فرأوا الشمس مشرقة والقمر متلألئاً والنجوم لامعة ، وأحسوا بعبير الأزهار يعطر جوانب الوادى ، وأخذوا يمدون أنوفهم وينشقون هذا العبير في هدوء ، شهيقاً وزفيراً منتظماً ، لا تسرع به فزعة ولا تعكره هجمة ، ويمدون أرجلهم في الطرق ، ثم يسيرون إذا أشرق النهار وإذا أظلم الليل ،

(١) كان بينها وبين الإسكندرية مسيرة شهر .

(٢) كانت ليبيا مضافة إلى مصر في ذلك الوقت .

يملئون أعينهم من حمولهم ومتاجرهم، ويرفعون أصواتهم بدعواتهم وصلواتهم، مطمئنين فى جناح الإسلام الرحيم الذى يحترم العهود ويقدس المواثيق .

وشغل النيل أنظار المسلمين فلاحظوه وهو يفيض ويغمر الأرض ويحجز ماؤه بين القرى ، فلا تتصل إلا فى خفاف القوارب وصغار المراكب ، ثم يشتد فيضانه حتى يتكامل ، ثم يأخذ فى الانخفاض حتى يعود كما بدأ ، فيخرج المصريون ليحرثوا أعالى الأرض وأسافلها ، يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب ، حتى إذا ظهر النبات سقاه الندى من فوقه ، وغذاه الثرى من تحته ، فبينما مصر درة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء ثم إذا هى زبرجدة خضراء[1] .

هذه الأرض الطيبة الطائعة ، فيها صفات من صفات العرب ، كلما أكرمتها ردت إليك إكرامك شاكرة وزادت ، وكلما أهنتها غضبت عليك

---

(١) قيل إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه طلب من عمرو بن العاص وصف مصر فكتب إليه يقول :

« مصر تربة غبراء وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان ، كجرى الشمس والقمر له أوان ، تظهر به عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا عج عجاجه ، وعظمت أمواجه ، لم يكن وصول بعض القرى إلى بعض إلا فى خفاف القوارب وصغار المراكب ، فإذا تكامل فى زيادته نكص على عقبه كأول ما بدأ فى شدته وطما فى حدته ، فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه ؛ يبذرون الحب ، ويرجون الثمار من الرب ، حتى إذا أشرق وأشرف ، سقاه من فوقه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فعند ذلك يدر حلابه ويغنى ذبابه ، فبينما هى يا أمير المؤمنين درة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء ، وإذا هى زبرجدة خضراء ، فتعالى الله الفعال لما يشاء . . . » .

وأخفت عنك درها ومنعت خيرها ، عنيدة إذا عاندتها ، منقادة إذا أحسنت إليها ، وقد ولاك الله أمرها ، وجعل بيدك حياة أهلها ، وعهد إليك الخليفة بها ، فأصبحت فى عنقك أمانة ستحاسب عليها أمام الله ، فأحى هذه الأرض ، ومتع أهلها بها ، وستقدم إليك بيدها ما فاض عنها راضية باسمة !

هكذا حدث عمرو نفسه ، وهكذا وضع خطته ، فعنى بالإنفاق على الترع والجسور ، ووجه كثيراً من الضرائب إلى أعمال الإصلاح ، وأقام مقياساً على النيل ، يحدد الزيادة والنقص ، حتى تجبى الضرائب على أساسه ؛ فلا يظلم الناس فى عام الانخفاض ، كما كان يفعل الرومان .

وأحس الخليفة عمر فى المدينة أن خراج مصر قد نقص عما كان يجبيه منها الرومان فكتب إلى عمرو يلومه ويتهمه ، لكن ابن العاص كان كبير القلب نظيف اليد ، فرد على الخليفة بقوة العربى المعتز بنفسه ومحتده ، ونبهه إلى أن الرومان القساة كانوا يمتصون دماء مصر ، حتى تركوها هزيلة لا تدر ، أما هو فقد عول أن يجعلها سمينة تدر لأهلها وللمسلمين .

رأى المصريون من المسلمين عفة وعدلا وإيماناً ، ووجدوا فى عمرو الأب الرحيم والأخ البار ، ينظر إلى الناس كما ينظر إلى أبنائه ، لا ينحاز إلى طائفة ولا يفضل جماعة ، ولا يفرق بين أبناء البلاد ليسود ، كما فعل الرومان ، ووجدوا فيه الحاكم الكفء المرن الذى يلبس لكل حال لبوسها ،

اللين فى غير ضعف ، الشديد فى الحق ، المثال الحسن للرجل التقى العادل الذكى ، فدخل كثير من المصريين فى دين الإسلام حبًّا فى عمرو ودين عمرو ، وأخذت مصر تخطو إلى الأمام يانعة مزدهرة ، ملتفة حول واليها الذى أحبته وأخلصت إليه تقديراً وإعجاباً .

واستمر عمرو ينفخ فى مصر من روحه الوثابة ، ومصر تضحك بهجة وسروراً ، حتى قبض الخليفة عمرو بن الخطاب ، واختير بعده للخلافة عثمان بن عفان ، فكان من حظ مصر أن يتركها منقذها وبانيها ، وأن يأمر الخليفة الجديد بعزله عنها ، فتألم أهلها وودوا لورجع الخليفة عن رأيه ، لكن الخليفة لم يرجع ، فخرج عمرو ، تودعه القلوب وتشيعه الأفئدة ، وكانت آخر كلمة ودّع بها أحبابه : « اطمئنوا فسوف أعود » .

العودة

كان عمرو بن العاص يقرأ ببصيرته ما سينتهى إليه أمر الخليفة الجديد ، فقد وجده يسير فى طريق تثير عليه الدولة الإسلامية الواسعة ، التى آل أمرها إليه ، وصدق ما توقعه فقتل عثمان ، وتنازع الصحابه على الخلافة ، وانحصر النزاع فى زعيمين قويين ، هما على بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وأخذ كل منهما يجمع حوله الأنصار ، فانقسم العالم الإسلامى إلى فريق العراق حول على ، وفريق الشام حول معاوية ،

ولم يكن مثل عمرو ليُنسى في مثل هذا النزاع ، فني حيله ودهائه ، ما يقوم مقام الكتائب ذات العدة والعدد ، فأسرع معاوية يضمه إليه ، وكان الجزاء الذى اشترطه عمرو لقاء خدماته هو مصر ، التى لا تزول من خاطره ، ولا تمحى صورة نيلها من قلبه .

أقدم عمرو على العمل مع معاوية . وصورة مصر تثير حماسته ، وتضيف إلى دهائه دهاءً ، وإلى حيله حيلاً . فكان له الفضل في انتصار معاوية . وتمهيد السبيل ليكون الخليفة الذى يحكم بلاد العراق والجزيرة والشام ومصر إلى برقة وطرابلس ، وأسرع عمرو عائداً إلى مصر وهو يردد آخر كلمة ودع بها أحبابه المصريين : « اطمئنوا فسوف أعود » .

عاد عمرو إلى مصر . ووقعت عيناه مرة أخرى على مغانيها الجميلة ونيلها المتدفق ، فابتسمت شفتاه ، وترقرقت الدموع في عينيه ، فمد بصره من خلال الغشاء الذى نسجته دموعه ليرى هذه الصورة الفاتنة التى غاب عنها اثنى عشر عاماً .

وأسرع الناس يحيون عمراً حبيبهم ، الذى لم ينسوه كلما أشكل عليهم أمر أو قسا وال من الولاة الذين خلفوه ، أو رأوا آثاره التى أعادت الحياة إلى مصر ، بعد أن امتص دمها الرومان ، وكانت نظراتهم ممتلئة بالاستعطاف والأمل ليبدأ عهده السعيد .

واستجاب عمرو لهذا الأمل ، الذى قرأه في عيون مستقبليه ، فبدأ يرز

الوادى الخصيب ، ويحيى البلاد التى تعدل عنده بلاد الخلافة كلها .

ولم يكن النزاع بين على ومعاوية قد هدأ ، ولم يوضع حد فاصل لذلك الخلاف الذى فرق المسلمين ، فاجتمع بعض الناس وقرروا أن يضعوا بأيديهم نهاية لهذا النزاع بقتل على ومعاوية (١) .

ولم ينسوا شريك معاوية الذى كان لتدبيره الفضل فى رجحان كفته ، وهو عمرو بن العاص ، فقرروا أن يكون الثالث ، لتزول رءوس الخلاف ، ويولى المسلمون عليهم من يختارون .

وفى ليلة واحدة كانت ثلاثة أسياف تتحرك فى جنح الظلام ،وعيون ستة تخترق حجب الليل ، فى ثلاثة أمكنة من الدولة الإسلامية ،اثنتان منها فى العراق ، واثنتان فى الشام ، واثنتان فى مصر .

وكاد الخيط الأبيض يتبين من الخيط الأسود ، وخرج الأئمة إلى المساجد ليصلوا الفجر بالناس ، وانحدرت السيوف الثلاثة إلى المقاتل ، ففاز سيف العراق برأس على بن أبى طالب ، وانحرف سيف الشام عن مقتل معاوية ، أما سيف مصر فقد فلق هامة من الهامات .

وتجمع الناس حول القاتل والقتيل ، وأمسكوا بالقاتل ونظروا فى وجه القتيل ، ثم علا الصياح والقاتل يعد أذنيه ليتأكد من فريسته ، وساقوه إلى مكان يجلس فيه رجل ذو هيبة وهم يصيحون :

---

(١) بعض من جماعة الخوارج الذين خرجوا على على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان.

— خارجة ! خارجة !

فزفر القاتل زفرة تكاد تلتهب ، ثم مال على رجل ممن حوله وسأله :

— ألم أقتل عمراً ؟ !

فأجابه الرجل فى سخرية :

— بل قتلت خارجة ! وعمرو هو الجالس أمامك !

فطفرت دمعة حزينة من عينى القاتل وصاح فى ألم :

— أردت عمراً وأراد الله خارجة !

وكان عمرو فى تلك الليلة قد شعر ببعض المرض فأناب عنه فى صلاة الفجر خارجة بن حذافة صاحب شرطته . ولم تطل اللحظات بالقاتل حتى طار رأسه من فوق كتفيه ، ومر به الناس مصاوباً على الأعواد ، واستأنف عمرو العمل من أجل مصر .

أراد الله عمراً

جد عمرو فى العمل بهمة ونشاط ، وإن كانت سنه قد أوفت على الزمن الذى تهن فيه القوى وتضعف العزائم ، لكن القلوب الكبيرة لا تشيخ ، لأنها تعلم أن رسالتها فى الحياة قد بدئت بأجل وتنتهى بأجل ، وأن عليها حمل هذه الرسالة حتى يحين الوقت المحتوم ، فتسلم للقدر غير جازعة ولا وجلة .

قضى عمرو أربع سنوات دائم العمل موفور النشاط ، لكنه أحس ذات يوم بأن داعياً يدعوه إلى السفر البعيد الطويل ، وأن جسمه قد استجاب لهذا الدعاء ، فأوى إلى فراشه ، وأقبل عليه العواد وقد شغله ما هو فيه عن الدنيا وتصريفها ، وأهمه مرضه فى هذه المرة ، وقد كان لا يهتم بمرض ولا يبالى بسقم ، وأوحت نظرته الساهمة إلى العواد أنه يودع دنياه ، ويرسل ذهنه إلى كل مكان سار فيه ، وكل موقعة نازل فيها أعداءه ، وأنه يستعرض صحيفة أعماله ليتأكد من الطريق الذى سيسير فيه بعد قليل ، أهو إلى جنة أم إلى عقاب .

وانتبه عمرو من تفكيره البعيد على أصوات تسلم عليه ، وتدعو له بالشفاء العاجل ، فوجه إليهم بصره ، ولكنه لم يتمالك نفسه ، فولى وجهه إلى الحائط وانخرط فى البكاء ، حتى أبكى من حوله ؛ فصاح به ابنه عبدالله :

— ما يبكيك يا أبتاه ؟ ! أجزعاً من الموت ؟ ! أما بشرك رسول الله بالجنة ؟ !

فمسح عمرو دموعه ، ولوى وجهه وقال لابنه :

— كنت يا بنى أود أن أموت حين أسلمت ، فألقى ربى نقياً خالصاً ، بعيداً عن الدنيا ، فلو مت فى تلك الحال لرجوت أن أكون من أصحاب الجنة ، ولكن طال بى الأجل ، ووليت أشياء من الدنيا ، فلست أدرى ما حالى فيها !

وتعالت أصوات العائدين :

ـ أبقاك الله يا عمرو ، حتى تتم الخير لمصر ، فإنها أحوج ما تكون إليك

ورن اسم مصر فى أذن عمرو وفى قلبه ، وأثار شجونه مرة أخرى ، فانخرط فى البكاء ، ثم هز رأسه قائلا :

ـ مصر ! أستودعكم مصر ، أستودع الله مصر !

وانهمرت دموعه ، وانبعثت الأصوات تكرر الدعاء له بالشفاء . لكن عمراً كان يحس النهاية فالتفت إلى بنيه قائلا :

ـ بكيت يا أبنائى لا جزعاً من الموت ، ولكن خشية من رسول الله إذا لقيته ، أن أكون قصرت فى عهده ، أو ظلمت أحداً من عباد الله ، وقد أسلمت ، وما استطعت أن أملأ عينى منه حياء وإجلالا ، فكيف أقابله ، فيسألنى عن أمته ، وقد أكون نسيت أو أخطأت .

يا بنىّ إذا أنا مت فلا تتبعنى نائحة ، وإذا دفنتمونى فى قبرى فصبرا علىّ التراب صبًّا ، فليس جنبى الأيمن أولى بالتراب من الأيسر ، ولا تجعلوا فى قبرى خشبة ولا حجراً .

فإذا فرغتم من دفنى فلا تتركونى وتسرعوا إلى الدنيا ، بل أقيموا عند قبرى قليلا فأستأنس بكم ، حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربى .

ثم نظر إليهم ، وسرح بصره فيمن حوله وقال : أسندونى فسندوه ، واستقبل القبلة ، ووجه وجهه إلى الله وأخذ يقول :

ـ اللهم إنك أمرتنا فعصينا ، ونهيتنا فارتكبنا ، وهذا مقام العائذ بك ، فإن تعف فأنت أهل للعفو ، وإن تعاقب فبما قدمت يداى .

اللهم إنى لا قوى فأنتصر ، ولا برىء فأعتذر ، ولا مستكبر بل مستغفر، أستغفرك وأتوب إليك . ولكن لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

وأخذ الجميع ينظرون إلى عمرو وهو يودع الناس ويستقبل الآخرة ، قوى الإدراك حاضر الذهن ، وعيونهم منهمرة بالدموع ، حزناً على هذه الصفحة الناصعة التى تطوى أمامهم وتلك الشعلة القوية التى تخبو شيئاً فشيئاً . وهم يرونها تتضاءل فلا يستطيعون أن يوقدوها مرة أخرى .

ووقفوا خاشعين أمام سلطان الموت الذى يقترب من قاب طالما فر من المآزق الضيقة ، ولكنه الموت ، إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

وأخذ صوت عمرو يخفت ، فأسرع أبناؤه وأسندوه حتى نام فى فراشه ، ثم توقف اللسان اللبق ، وانطبقت العينان النافذتان ، وهمد الرأس المفكر ، وسكن الجسم النشيط ، وغطاه أبناؤه ثم انصرف الجميع فى حزن عميق .

مات عمرو ! ! مات عمرو !

ورددت الألسنة هذا النبأ ، وأخذ كل من فى مصر يردد فى لوعة : مات عمرو ! . ولبست مصر الحداد على حبيبها المخلص ، وطار النبأ إلى العالم الإسلامى ، فحزن الصديق ، وسر العدو ، وحمل عمرو إلى مثواه ، فى الأرض الطيبة التى ضمت أجسام العباقرة والمصلحين ، فى صبيحة عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين للهجرة ، بجوار المقطم ، ودخل معه أحبابه القبر ، ثم خرجوا ، وتركوه وحيداً ، ليقابل ربه ، فيسأله عما قدمت يداه ؛ وما قدمت يداه إلا خيراً للإسلام ، وأبناء الإسلام .

أشهر المراجع

١ ــ تاريخ الطبرى
٢ ــ تاريخ المسعودى
٣ ــ تاريخ ابن الأثير
٤ ــ تاريخ ابن عساكر
٥ ــ سيرة ابن هشام
٦ ــ السيرة الحلبية
٧ ــ أسد الغابة
٨ ــ كتاب الأصنام
٩ ــ تاريخ الذهبى
١٠ ــ معجم البلدان
١١ ــ خطط المقريزى
١٢ ــ تفسير الطبرى
١٣ ــ صحيح البخارى
١٤ ــ الأغانى
١٥ ــ النجوم الزاهرة
١٦ ــ فتوح مصر لابن عساكر
١٧ ــ خطط الشام

رقم الإيداع		١٩٩٥ /٨٣٤١
الترقيم الدولى	977 – 02 – 5035 – X	ISBN

٧ / ٩٥ / ١٠١

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)